بيتهوفن ... والألم العبقرى

لودفيج فان بيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧ م) مؤلف موسيقى ألمانى ولد فى مدينة بون ، يعتبر من أبرز عباقرة الموسيقى فى جميع العصور ، وأبدع أعمالاً موسيقية خالدة ، له الفضل الأعظم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية ، وتشمل مؤلفاته للأوركسترا تسعة سيمفونيات وخمس مقطوعات موسيقية على البيانو ومقطوعة على الكمان ، كما ألف العديد من المقطوعات الموسيقية كمقدمات للأوبرا .

ظهر تميزه الموسيقى منذ صغره ، فنشرت أولى أعماله وهو فى الثانية عشرة من عمره ، اتسعت شهرته كعازف بيانو فى سن مبكرة ، ثم زاد إنتاجه وذاع صيته كمؤلف موسيقى ، عانى بيتهوفن كثيراً فى حياته ، عائلياً وصحياً ، فبالرغم من أن أباه هو معلمه الأول الذى وجه اهتمامه للموسيقى ولقنه العزف على البيانو والكمان إلا أنه لم يكن الأب المثالى ، فقد كان مدمناً للكحول .

انتقل إلى فيينا والتقى بموزارت وأخذ منه بعض الدروس فى التأليف ولفتت عبقريته نظر موزارت فقال لأصدقائه " التفتوا إلى هذا الشاب فسوف يحدث ضجة فى عالم الموسيقى " ، وفى هذه الفترة توفيت والدته فعاد إلى بون،

ولما بلغ الثانية والعشرين انتقل إلى فيينا ثانية وتتلمذ على يد " هايدن " إلا أن عبقريته كانت تفوق قدرات أساتذته دائماً .

وعندما سافر هايدن إلى لندن تحول بيتهوفن إلى معلمين آخرين مثل ساليرى وشينك وألبريشتبيرجر ، وقد أسهمت كل هذه الدروس والاحتكاكات فى تكوين شخصية بيتهوفن الفنية ، وحاول أن يشق لنفسه طريقاً كعازف فى عاصمة الموسيقى ، وسرعان ما شغل مكانة كبرى خاصة فى الأوساط الأرستقراطية ، فقد حاز بإعجاب الأسرة الملكية وعومل كصديق أكثر منه مؤلفاً .

وكان بيتهوفن فى شبابه ديموقراطياً مقتنعاً بالنظام الجمهورى متحمساً لشعار الثورة الفرنسية " الحرية " و " الإخاء " و " المساواة " كما كان معجباً إعجاباً فائقاً بنابليون حتى أهداه أحد مؤلفاته الرائعة ، ثم أصيب بصدمة عنيفة عندما وصلت الأنباء إلى فيينا بأن نابليون قد نصب نفسه إمبراطوراً على فرنسا، فمزق فى ثورة غضب عنيفة ذلك الإهداء الذى كتبه على الصفحة الأولى من مخطوطة تلك السيمفونية .

بدأت إصابة بيتهوفن بالصمم عام ١٨٠٢ ، فبدأ فى الانسحاب من الأوساط الفنية تدريجياً ، وأمضى حياته بلا زواج ، إلا أنه لم يتوقف عن الإنتاج الفنى ، ولكن أعماله اتخذت اتجاهاً جديداً ، ومع ازدياد حالة الصمم التى أصابته امتنع عن العزف فى الحفلات العامة ، وابتعد عن الحياة الاجتماعية واتجه للوحدة ، وقلت مؤلفاته ، وأصبحت أكثر تعقيداً ، حتى أنه رد على انتقادات نقاده بأنه يعزف للأجيال القادمة ، وبالفعل ما زالت أعماله حتى اليوم من أهم ما أنتجته الموسيقى الكلاسيكية العالمية ، واكتسبت اثنتان من السيمفونيات التى كتبها فى صممه أكبر شعبية ، وهما السيمفونية الخامسة والتاسعة ، كما أنه

أحدث الكثير من التغييرات فى الموسيقى ، وأدخل الغناء والكلمات فى سيمفونيته التاسعة ، فجاءت رسالته إلى العالم " كل البشر سيصبحون إخوة ".

وبالرغم من اليأس الذى أصابه فى أوقات عديدة ، وكاد يصل به للانتحار ، إلا أنه قاوم ووجه طاقته كلها للإبداع الفنى ، حتى أنه قال يوماً " يا لشدة ألمى عندما يسمع أحد بجانبى صوت نای لا أستطيع أنا سماعه ، أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً ، كل هذا كاد يدفعنى إلى اليأس وكدت أضع حداً لحياتى اليائسة ، إلا أن الفن وحده هو الذى منعنى من ذلك " وطالما أضاف عدم تفهم الناس لحالته ألماً على ألمه ، ولكن معاناته لم تطل كثيراً فقد توفى عن عمر يناهز السابعة والخمسين ، بعد أن أثرى الموسيقى الكلاسيكية العالمية ، وصار أحد أعلامها الخالدين .

حرب الأفيون

كانت هذه الحرب من أكثر الأحداث التى تركت مرارة فى نفوس الصينيين ، وكانت بريطانيا هى البادئة فى إشعالها ، لحماية تجارة الأفيون ... تلك الحرب التى انتهت بالتنازل عن هونج كونج للتاج البريطانى.

فقد ظلت مصادر الثروة الصينية الوفيرة تجذب إليها دائماً تجار أوربا المتلهفين عليها وكانت بريطانيا أوفر البلدان تجارة مع الصين ... وحافظت شركة الهند الشرقية على احتكار بريطانيا لهذه التجارة ... لكن الحكومة فى بكين لم ترحب بالتجار الأجانب ورأى الإمبراطور الصينى أن البريطانيين إذا ما رغبوا فى التجارة مع الصين فلابد لهم من أن يمارسوها وفقاً للشروط الصينية .

وقد أوهنت الصين عزائم التجار بما فرضته من قيود فالتجارة مقصورة على ميناء واحد وهو ميناء كانتون الذى وضع تحت سيطرة جماعة صغيرة يستطيع أعضاؤها تثبيت أسعارهم المرتفعة لأنهم يحتكرون التجارة ، وعلى التجار الإقامة فى أحياء محدودة ومحظور عليهم مغادرتها ، كما أنهم لا يستطيعون البقاء بها إلا خلال الموسم التجارى من أكتوبر إلى مايو بالإضافة إلى أنهم خاضعون للقانون الصينى ، وربما بدت تلك التنظيمات معقولة ولكنها

أحدثت بلا ريب ضيقاً وظلت الشكاوى تنهال على الحكومة البريطانية ، لكن الكثير منها كان يتعلق بأحد فروع التجارة ، هو تجارة الأفيون الذى كان السلعة الوحيدة المصدرة إلى الصين بأية مقادير ، وكان يأتى من الهند الخاضعة للنفوذ البريطانى أى على بواخر بريطانية وبواسطة تجار بريطانيين ، ومع حلول منتصف القرن الثامن عشر ، أصبح تدخين الأفيون خطراً عظيماً على صحة الأهالى فى الصين.

وفى عام ١٨٠٠ م حرمت الحكومة الأفيون ، ولكن تجارته استمرت بمعاونة بعض الصينيين المخالفين ، ولم تكن الحكومة البريطانية على علاقة طيبة بالصين ، وبالإضافة إلى سياسة " الباب المغلق " رفض الصينيون اعتبار شعوب البلدان الأخرى سواسية معهم ... وفى عام ١٨٣٤م بذلت محاولات لإنشاء علاقات عندما عين اللورد " نابيير " للإشراف على شئون التجار البريطانيين فى كانتون لكن الصينيين رفضوا الاعتراف بشرعية وظيفته ... ولقد كان وقع الإهانة فى لندن قوياً وسيئاً وكان الأسوأ منها الأثر الذى خلفه إلغاء احتكار شركة الهند الشرقية فى عام ١٨٣٣م وكان ذلك يعنى الزيادة الكبيرة المفاجئة فى عدد التجار الذين يزاولون تجارتهم مع الصين ... وفى نفس الوقت حدث ما أدى إلى تصاعد الأزمة حيث زادت تجارة الأفيون على مدى السنوات التالية ووصلت إلى أربعين ألف صندوق عام ١٨٣٩م فى حين كانت خمسة آلاف صندوق فقط عام ١٨٢١م.

وهنا عزم الإمبراطور الصينى " تاو كوانج " على التخلص من هذا الخطر ، فأرسل " لين تسى هسو " إلى كانتون فى عام ١٨٣٩م فأصدر أوامره بتسليم جميع صناديق الأفيون ، وألقى القبض على ١٦ تاجراً كرهائن وحاصر الباقين حتى استسلموا ووقعوا تعهدات بألا يمارسوا التجارة ثانية ، وفى احتفال تم إحراق أكثر من عشرين ألف صندوق من الأفيون ... وغضب وزير

الخارجية البريطانى وأعلن أن الصينيين قبضوا على تجار بريطانيين وليس على أفيون بريطانى ، وأرسل الأسطول فى نوفمبر من نفس العام وهكذا اشتعلت الحرب.

وكانت حرب الأفيون سلسلة طويلة من الكوارث انصبت على رؤوس الصينيين وسقطت النقط الحاكمة على طول الساحل واستولى الإنجليز على عدة مناطق صينية ، وفى عام ١٨٤٢م أصبح الخطر يهدد بكين وطلب الصينيون السلام ... وفى أغسطس من نفس العام انتهت الحرب باتفاقية " نانكنج " التى كان من أهم بنودها تملك بريطانيا لهونج كونج ، ومنح التجار البريطانيين حقوقهم كاملة فى ارتياد الموانئ الصينية الخمس ... وكان على الصينيين الاعتراف بالمساواة السياسية ، كما كان عليهم أن يدفعوا تعويضات ضخمة تعادل ٢١ مليون دولار ... ولم يذكر الاتفاق شيئاً عن الأفيون الذى ظل مصدراً للنزاع.

وقد استغلت دول أخرى كفرنسا والولايات المتحدة ضعف الصين لتحصل على امتيازات مماثلة لنفسها ، واستمرت الصين فى رفضها اعتبار الدبلوماسيين الأجانب سوى برابرة ، وتبعت ذلك حروب كثيرة وقعت فيها الصين معاهدة أخرى مهينة عام ١٨٦٠م ، نصت على فتح المزيد من الموانئ أمام تجارة هذه الدول ، ومنح حق الاقامة لرعاياهم فى بكين ، والتعامل المباشر مع البلاط الإمبراطورى ، وحرية تجول المبشرين فى الصين ، والتنازل عن منطقة كولون وهى منطقة واقعة فى الصين والأكثر قرباً من هونج كونج ، وارتفع بذلك عدد المدمنين فى الصين من مليونى مدمن عام ١٨٥٠م إلى ١٢٠ مليوناً عام ١٨٧٨م.

سيمون بوليفار
محرر أمريكا اللاتينية

قائد ثورى وسياسى من فنزويلا تدين له جمهوريات فى أمريكا اللاتينية باستقلالها عن الحكم الأسبانى ، ولد سيمون بوليفار فى كاراكاس فى عام ١٧٨٣، تأثر خلال دراسته بالفلسفة ، ودرس بشكل خاص جان جاك روسو الذى ترك أثراً عميقاً فى شخصيته ، سافر بوليفار فى مطلع شبابه إلى فرنسا حيث التقى بالعالم الألمانى اسكندر هومبولت الذى نقل له اعتقاده بأن المستعمرات الأسبانية فى حالة استعداد للتحرر ، فراقت الفكرة لبوليفار وأخذ يمعن النظر فى تحرير بلاده.

وفى عام ١٨٠٧ عاد بوليفار إلى فنزويلا حيث اشترك فى اجتماعات وطنية عدة للتآمر على السلطات الأسبانية التى كانت تحكم بلاده ، واستطاع فى عام ١٨١٠ الإطاحة بالحاكم الأسبانى فنسينت دى امبران وإقامة حكم عسكرى.

وفى عام ١٨١١ أعلن المجلس الوطنى استقلال فنزويلا فانخرط بوليفار فى الجيش تحت قيادة فرانسيسكو ميراندا وأصبح عقيداً ثم عميداً ، إلا أن أسبانيا لم تعتبر نفسها مهزومة فقامت بهجوم مضاد على فنزويلا مما دفع ميراندا إلى توقيع الهدنة معها عام ١٨١٢ ، وغادر بوليفار إلى كارتاجينا فى غرناطة الجديدة التى أصبحت فيما بعد كولومبيا ، ومن هناك أكد أن انقسام شعب

فنزويلا هو الذى أعادها إلى العبودية ، فتجاوب معه شعب غرناطة وتم تعيينه قائداً لحملة هدفها تحرير فنزويلا ، فى عام ١٨١٣ اشتبك مع الأسبان فى ست معارك ودخل منتصراً إلى كاراكاس بصفته منقذاً للبلاد ، وحصل على لقب "المحرر" واستولى على الحكم ، إلا أنه أسس حكماً ديكتاتورياً قوياً وأنزل أحكاماً قاسية بمعارضيه مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية ، فاستغلت أسبانيا الوضع وأعادت احتلال كاراكاس ، فى حين غادر بوليفار فنزويلا والتجأ إلى كارتاجينا .

واصل بوليفار ثورته وأقام اتصالات مع ثوار السهول الذين انضموا إليه، وفى ربيع ١٨١٩ قاد حملة لضرب القوات الأسبانية فى غرناطة الجديدة ، ويعتبر هذا الهجوم من أكثر الحملات جرأة فى تاريخ الحملات العسكرية إذ قام به جيش صغير (٢٥٠٠ رجل) سلكوا طريقاً صغيراً فى جو ممطر ، وقطعوا بحيرات وجبالاً ، كان الأسبان يعتبرون المرور فيها متعذراً وحتى مستحيلاً .

بعد استسلام القوات الملكية لبوليفار ، تم إعلان جمهورية كولومبيا الكبرى وانتخابه رئيساً عسكرياً لكن هذه الدولة الفيدرالية التى ضمت فنزويلا وكيتو (الاكوادور) وغرناطة الجديدة ، كانت حبراً على ورق ، لأن فنزويلا وكيتو كانتا لا تزالان تحت سيطرة أسبانيا ، وشعر بوليفار أن الثورة فى أمريكا الجنوبية أصبحت حتمية ، فعاد لمجابهة القوات الملكية وحرر كاراكاس فى ١٨٢١ ، والاكوادور فى ١٨٢٢ ، وبذلك تم تحرير جمهورية كولومبيا بأسرها ، ولم يبق بأيدى المستعمرين سوى البيرو التى تمكن بوليفار من تحريرها فى ١٩٢٤ باستثناء القسم الأعلى منها الذى حرره مساعده بعد عام فقط ، واتخذت هذه المنطقة اسم بوليفيا تيمناً ببوليفار .

فى عام ١٨٢٦ أقام القائد المنتصر حلفاً يضم دول أمريكا الأسبانية ووقعت أثر ذلك معاهدات بين كولومبيا والبيرو وأمريكا الوسطى والمكسيك التى

اتخذت قراراً فى ما بينها بإنشاء جيش وأسطول مشترك ، وتعهدت بـــأن تحـــل جميع مشاكلها بالتحكيم.

فى مطلع عام ١٨٢٧ دب الخلاف بين غرناطة الجديدة وفنزويلا فاصلح بوليفار الوضع ، إلا أن الأخيرة ما لبثت أن انفصلت عن كولومبيا فـــى شـــتاء ١٨٢٩ ، فأصيب بوليفار باليأس وغادر البلاد وتوفى عام ١٨٣٠.

تشارلز ديكنز ... رحلة إلى الآمال الكبرى

" كان ذلك الزمن أفضل الأزمنة ... وكان أسوأها " عبارة شهيرة قالها الروائى الإنجليزى الكبير تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠م) فى افتتاحية روايته الشهيرة قصة مدينتين ، وكأنه يصف طفولته التى أطلقت كل هذا النبوغ الأدبى ، فقد ولد ديكنز فى عائلة كبيرة وفقيرة فكان الابن الثانى من بين ثمانية أخوة ... كان والد تشارلز ديكنز كاتب حسابات أما جده وجدته لأبيه فكانا خادمين وقد كان والده مسرفاً مما أدى إلى صعوبة الأحوال المادية التى عذبت طفولة الإبن ولكن هذا العذاب هو الذى خلق منه العبقرى الذى خلده التاريخ وكان سبباً فى أن يصبح كاتباً كبيراً .

ساءت الأمور وكثرت الديون على آل ديكنز وبيع الأثاث وجاء الدور على كتب تشارلز وقصصه مما جعله يحس بالتعاسة ، وأرسله أبواه ليعمل فى مصنع مما أثر فى نفسه تأثيراً لم ينته بمرور السنين .

ثم أصيب هو وعائلته بكارثة إذ قبض رجال الشرطة على والده لعدم قدرته على سداد ديونه ، وأرسل إلى السجن المخصص للمدينين العاجزين عن السداد ، وأمضى ديكنز الأب ثلاثة أشهر فى السجن ، ويصف تشارلز حالته فى هذه الفترة " كنت اتجول فى الشوارع وأنا جائع ولولا رحمه الله لأصبحت لصا

أو متشرداً صغيراً ... لقد تأثرت طبيعتى كلها من الحزن ، والتحقير اللذين لحقانى نتيجة الأحداث التى مرت بى ، حتى أننى الآن وأنا شهير وسعيد أنسى أحياناً فى أحلامى أننى رجل ولى زوجة وأطفال وأعود بخيالى إلى تلك الأيام البائسة من حياتى ".

فى سن الخامسة عشرة بدأ العمل صبياً فى مكتب أحد المحامين وعمل بعد ذلك فى إحدى المحاكم وقد ساعده ذلك فى إتقان النواحى القانونية فى قصصه ، وفى نفس الوقت كان يعمل مراسلاً لإحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء أجر متواضع أيضاً ، ولكنه لم يهتم بالأجر فلقد تفانى فى العمل الصحفى الذى كان بمثابة أولى خطواته لتحقيق أحلامه ، فقد تدرب من خلاله على حرفة الأدب ، ولقد أتاح له هذا العمل الصحفى أن يتأمل أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والأخلاقية فخرج بالعديد من التجارب الإنسانية والأخلاقية التى وسعت آفاقه ومداركه الأدبية والحياتية ، كما أغرم بفن التمثيل فكان يكثر من الذهاب إلى المسارح وقاعات الموسيقى .

بدأت شهرته الأدبية حيث نشرت الصحف انطباعاته عن لندن التى عشق التجول بين أحيائها وشوارعها الراقية والفقيرة التى وصفتها معظم قصصه الروائية ، ثم بدأ فى رواياته الطويلة ومن أهمها " اوليفر تويست " وتعد من روائع الأدب العالمى ، وترجمت إلى جميع لغات العالم ، وتحولت إلى فيلم سينمائى ومسلسل تليفزيونى ، ولا زالت تدرس كنموذج للرواية الكلاسيكية ، وهى تدور حول حياة صعبة لطفل يحمل اسم الرواية يولد فى ملجأ للأطفال من أم مجهولة توفيت بعد ميلاده مباشرة .

كما كتب ديكنز رواية " الآمال الكبرى " التى تلاقى بين أحداثها الأمل والتفائل بأنه ما زال فى هذه الحياة متسع لآمال كبار تنمو بفضل آخرين توجد بداخلهم الإنسانية بأحلى صفاتها .

كما تعتبر رواية " ديفيد كوبرفيلد " واحدة من أشهر رواياتـــه وأجملهـــا حيث يرى بعض الكتاب أنها تقريباً قصة حياته ، حيث عرف عنه نشأته الفقيرة، وإجباره على ترك المدرسة فى سن مبكر ، وقد انعكست هذه النشأة بالطبع على رواية ديفيد كوبرفيلد .

وفى عام ١٨٥٩ نشر ديكنز " قصة مدينتين " أى قصة باريس ولندن ، وقد اعترف فيما بعد بأنه كتبها تحت تأثير الفيلسوف الإنجليزى توماس كارلايل، ويبدو أن كلتا المدينتين كانتا عزيزتين على قلب ديكنز ولكن معرفته بهما لم تكن متساوية فلندن أقرب إليه بكثير ، يضاف إلى ذلك أنـــه كـــان يخشـــى الثـــورة الفرنسية وأعمال العنف التى حدثت فى مرحلتها الثانية ، ولذلك فـــإن روايتـــه كانت تهدف ضمنياً إلى تحذير الإنجليز من القيام بثورة كهذه.

ومن رواياته أيضاً " ترنيمة عيد الميلاد " و " أوقات عصيبة " و "أوراق بيكويك " وذلك ضمن أربعة عشرة رواية كتبها ، إلى جانب الكثير من القصص القصيرة ، وتميزت أعماله بالوصف الدقيق للشخصيات ، وبعرضـــها الثـــرى للحياة الاجتماعية فى مختلف صورها ، ونزعتها العاطفيـــة وانتقـــاء الشـــرور الاجتماعية مثل الديون وسوء التعليم ، وقد عجلت كتابات ديكنز بالاصلاح فـــى ميادين كثيرة.

فى عام ١٨٥٠ أصدر ديكنز مجلة " كلمات عائلية " التى حققت نجاحـــاً استثنائياً ، وكانت وسيلة لتواصله المباشر مع قرائه من خلال كتاباته الصـــحفية الأسبوعية ، كما كان ديكنز يلقى الخطب فى المآدب من أجل القضايا الخيريـــة، كما قام بزيارة فرنسا وأمريكا وإيطاليا ، وبحلول نهاية هـــذه الفتـــرة وصـــلت شهرته ذروتها ، رغم أن بعضاً من أعظم إبداعاته الروائية جاءت فـــى فتـــرة لاحقة .

توفى تشارلز ديكنز وهو لم يتعد الثامنة والخمسين من عمره ، جراء أصابته بإرهاق شديد فى جولة له بأمريكا الشمالية ، وكان فى غمرة كتابة روايته البوليسية " سير ادوين درود " التى لم تكتمل ، وعند وفاته عام ١٨٧٠ بكته إنجلترا كلها ومشت وراء جنازته ، ولم يحظ أى كاتب بهذا التشريف الرسمى والشعبى ، لقد كان من الروائيين الأكثر شعبية فى كل تاريخ العالم ، بل يرى البعض أن شهرته كانت تعادل شهرة الملكة فيكتوريا ذاتها .

أول خط سكة حديدية فى العالم

تم مد أول خط حديدى فى العالم بين مدينتى ستوكتن ودارلنجتن بإنجلترا عام ١٨٢٥م ، وأشرف على إقامته جورج ستيفنسن مخترع القاطرة البخارية التى أطلق عليها " الروكت " وكانت سرعتها ٣٥ ميلاً فى الساعة وهى محفوظة الآن فى متحف لندن لوسائل النقل.

ومما يذكر عن جورج ستيفنسن أنه عاش بين عامى ١٧٨١ – ١٨٤٨م، وقد ولد فى أسرة فقيرة بإحدى قرى اسكتلندا واشتغل راعياً ثم عاملاً بأحد مناجم الفحم ، وقام بتعليم نفسه واخترع مصباحاً للأمان أدر عليه بعض المال ، ومن ثم انصرف إلى محاولة استخدام البخار فى تسيير الآلات ، وتم له تركيب أول قاطرة حديدية فى عام ١٨١٤م.

وكانت مصر أول دولة فى الشرق تمد خطاً لسكة حديد ، وتم هذا عام ١٨٥١ م أثناء ولاية عباس باشا الأول وافتتح عام ١٨٥٦م وهو الخط بين القاهرة والإسكندرية ، وأشرف على إقامته روبرت ستيفنسن ابن جورج ستيفنسن ... وما أن تم مد هذا الخط حتى بدئ فى مد خط جديد من القاهرة إلى ميناء السويس عبر الصحراء وقد تم افتتاحه لحركة النقل فى نوفمبر ١٨٥٨ م

وبذلك اكتملت الحلقة التى ربطت بين البحر الأحمر والبحر المتوسط وسهلت الاتصال بين الشرق والغرب.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية اعتبر يوم ٢٠ مايو ١٨٦٩م مناسبة تاريخية ، ففى هذا اليوم تقابل قطاران بولاية اوتاوا ، وكان أحد القطارين قادماً من الشرق والآخر من الغرب ، وسجلا بذلك أول خط حديدى عبر الولايات المتحدة من نيويورك إلى سان فرانسسكو وكان هذا يعنى اتصال جانبى القارة اللذين يبعدان عن بعضهما البعض مسافة ٤٨٠٠ كيلو متر تقريباً ، وظل هذا الخط أطول خط فى العالم لعدة سنوات ، ولكن فى أواخر القرن التاسع عشر من ١٨٩١ إلى ١٩٠٥م شُيِّد خط حديدى أطول منه بكثير وهو الذى أطلق عليه اسم "الخط الحديدى عبر سيبريا" وكان يصل بين موسكو وفلاديفوستوك ويبلغ طول هذا الخط حوالى ١٢٨٠٠ كم ، وعلى الرغم من أن الرحلة كانت غير مريحة فى الشتاء إلا أنها كانت مغرية للعديد من المسافرين ، وكتب عنها الكثيرون.

ومما يذكر أنه فى الأيام المبكرة للسفر بالسكك الحديدية ، كان على معظم الركاب أن يواجهوا ظروفاً من التعب والإرهاق البالغين فلقد كانت عربات الدرجة الثالثة مكشوفة للجو ومزودة بمقاعد خشبية فى حين لم تكن عربات الدرجة الثانية تفوقها كثيراً فى توفير الراحة للركاب ، بينما كان يسافر ركاب الدرجة الأولى فى عربات فاخرة ولكنها ليست مثل عربات الدرجة الأولى حالياً ... وفى عام ١٨٤٤ م وافق البرلمان البريطانى على قانون أجبر شركات السكك الحديدية على تجهيز عربات مغطاة لركاب الدرجة الثالثة.

وبعد ذلك تطورت القطارات فى سرعتها وامكانياتها وخدماتها ومن ذلك على سبيل المثال إنشاء عربات النوم ، وكان صاحب هذه الفكرة بولمان مورتيمر (١٨٣١ – ١٨٩٧م) وهو من رجال الصناعة الأمريكيين وكان

مضطراً للسفر ليلاً بالقطارات لمسافات بعيدة ثلاث مرات على الأقل فى الاسبوع الواحد ، وكثيراً ما تألم بسبب النوم على المقاعد الخشبية بالقطار فى أثناء الليل ، وشحذت معاناته ذهنه فى تصميم أول عربة سكة حديدية للنوم وهى المعروفة حالياً فى خطوط السكك الحديدية الطويلة ، ولقى مشروعه معارضة فى بادئ الأمر بحجة التكاليف الباهظة لعربات النوم هذه ، لكن سرعان ما أقبل المسافرون على حجزها لتقيهم شر التعب والبرودة التى تلحق بهم من النوم على المقاعد الخشبية بالقطار ... وتشجع بولمان فأسس عام ١٨٦٨ م شركة مركبات بولمان وجمع ثروة طائلة ولذلك أطلق اسمه على عربات النوم بالقطارات فى جميع أنحاء العالم.

أما عن أول خط حديدى فى العالم شيد تحت الأرض فقد كان فى لندن عام ١٨٦٣م وكان قصيراً جداً ، كما كانت القطارات حتى ذلك الحين تسير بالبخار ، أما أول سكة حديد تحت الأرض تسير فيها القطارات الكهربية فقد مدت منذ أكثر من خمسين عاماً وكان ذلك فى بودابست عاصمة المجر ، وبمدينة نيويورك اليوم من السكك الحديدية الأرضية ما يفوق أية مدينة أخرى فى العالم من حيث أطوال مسافاتها ، وفى مدينة موسكو بالاتحاد السوفيتى عدد من محطات السكك الحديدية الأرضية هى أجمل ما يوجد منها فى أى مكان بالعالم.

مذبحة المماليك ... أكون أو لا أكون !!

بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ ، سادت مصر حالة من الاضطراب والفوضى ، فقد عاد المماليك للصراع على الحكم ، على حين ظهرت قوة لا تقل عنهم تأثيراً هى قوة القيادات الوطنية المصرية التى استطاعت فى النهاية تنصيب محمد على والياً على مصر عام ١٨٠٥م.

وكان لتحالف تلك القيادات الوطنية ومن حولها جموع الشعب مع محمد على أكبر الأثر فى إلحاق الهزيمة بالحملة العسكرية الإنجليزية (حملة فريزر) التى ضمت نحو أربعة آلاف جندى قرب " رشيد " فى ١٨٠٧م والتى جاءت لتأييد بعض عناصر المماليك ، وتمكينهم من الوصول إلى الحكم فى مصر ليكونوا أعواناً لهم.

وأحس محمد على بخطورة المماليك ، وتهديدهم لأمن واستقرار البلاد ، فعمل على إبعادهم عن القاهرة ، وتعقبهم فى الصعيد ، حتى استطاع أن يخضع الصعيد لحكمه ، واستقرت له الأمور ، وأبدى له بعض المماليك الذين فروا إلى الصعيد الطاعة والولاء ، فسمح لهم بالعودة إلى القاهرة ، ولكنهم ظلوا يتآمرون عليه ويدبرون المكائد للتخلص منه .

أصبحت مقاليد السلطة فى مصر بيد محمد على ، واستقر له حكم

البلاد، ولكنه بدأ يشعر بالقلق إزاء تصاعد نفوذ القيادة الشعبية ، والزعامة الوطنية التى كانت سبباً فى وصوله إلى الحكم ، واختارته والياً على البلاد ، فبدأ يسعى إلى التخلص منها خوفاً من انفرادها بالحكم بعد أن تستنزف قوته فى حرب المماليك ، وسعى محمد على إلى الوقيعة بين القيادة الشعبية متمثلة فى المشايخ ، ثم نفى السيد " عمر مكرم " خارج القاهرة فى عام ١٨٠٩م واستطاع أن يقلص نفوذ المشايخ ، ويحد من دورهم فى الحياة العامة .

وبالرغم من محاولات محمد على الدؤوبة للتخلص من مراكز القوى فى دولته متمثلة فى زعماء المماليك ، فإنه ظل يقاسى من مؤامرتهم وغدرهم ، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن المماليك سيتعاونون مع الإنجليز .

وفى بداية يناير ١٨١١ سافر محمد على إلى السويس ليتفقد الأعمال التى كانت تجرى فى مينائها ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة فى فبراير ١٨١١ بعد أن وصلته الأخبار بضبط رسائل مريبة متبادلة بين المماليك فى القاهرة والمماليك فى الوجه القبلى .

فى تلك الأثناء أرسل إليه السلطان العثمانى يطلب منه إرسال قواته إلى نجد للمساعدة فى القضاء على الثورة الوهابية ، وعندئذ قرر محمد على القضاء على المماليك قبل خروج الجيش بقيادة ابنه " طوسون " إلى " نجد " حتى لا يثوروا ضده بعد خروج الجيش.

أعد محمد على مهرجاناً فخماً بالقلعة دعا إليه كبار رجال دولته ، وجميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك ، فلبى المماليك تلك الدعوة واعتبروها دليل رضاه عنهم ، وقبل ابتداء الحفل دخل البكوات المماليك على محمد على فاستقبلهم بالحفاوة ، ودعاهم إلى تناول القهوة معه ، وشكرهم على اجابتهم دعوته، والمح إلى ما يناله ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه فى

الموكب، وراح محمد على يتجاذب معهم أطراف الحديث ، إمعاناً فى اشعارهم بالأمن والود .

وحان موعد تحرك الموكب ، فنهض المماليك وبادلوا محمد على التحية، وانضموا إلى الموكب وكان يتقدم الركب مجموعة من الفرسان فى طليعة الموكب ، بعدها كان والى الشرطة ومحافظ المدينة ، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤود ، ثم المماليك ، ومن بعدهم مجموعة أخرى من الجنود الأرناؤود ، وعلى إثرهم كبار المدعوين ورجال الدولة .

وتحرك الموكب ليغادر القلعة ، فسار فى طريق ضيق نحو باب "العزب" فلما اجتاز الباب طليعة الموكب ووالى الشرطة والمحافظ ، أغلق الباب فجأة من الخارج فى وجه المماليك ، ومن ورائهم الجنود الأرناؤود ، وتحول الجنود بسرعة عن الطريق ، وتسلقوا الصخور على الجانبين ، وراحوا يمطرون المماليك بوابل من الرصاص ، أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى ، وحاولوا الفرار ، ولكن كانت بنادق الجنود تحصدهم فى كل مكان ، ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذبح بوحشية .

وسقط المماليك صرعى مضرجين فى دمائهم ، حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث ، ولم ينج من المماليك الأربعمائة والسبعين الذين دخلوا القلعة فى صبيحة ذلك اليوم إلا واحد يسمى " أمين بك " كان فى مؤخرة الصفوف ، واستطاع أن يقفز بجواده من فوق سور القلعة ، وهرب بعد ذلك إلى الشام ، وصاغ جورجى زيدان قصته فى رواية " المملوك الشارد " الشهيرة.

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة فى الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم ، وتفرق الناس ، وأقفلت الدكاكين والأسواق ، وهرع الجميع إلى بيوتهم ، وخلت الشوارع والطرقات من المارة .

وسرعان ما انتشرت جماعات من الجنود الأرناؤود فى أنحاء القـاهرة يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم ، ويقتحمون بيوتهم فينهبـون مـا تصل إليه أيديهم.

وكثر القتل ، واستمر النهب ، وسادت الفوضى ثلاثة أيام ، قتل خلالها نحو ألف من المماليك ونهب خمسمائة بيت ، ولم يتوقف السلب والنهب إلا بعد أن نزل محمد على إلى شوارع المدينة ، وتمكن من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط ، وهكذا استطاع محمد على الإنفراد بالحكم.

إبراهيم باشا ...
قائد عظيم لم يهزم

كان يجاهر بإحياء القومية العربية ويعد نفسه عربياً وحين سئل كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ، فأجاب : " أنا لست تركياً فإنى جئت إلى مصر صبياً ، ومن ذلك الحين مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دماً عربياً ".

ولد إبراهيم باشا بن محمد على (١٧٨٩ – ١٨٤٨ م) فى قولة وهى ثغر صغير على حدود مقدونيا وتراقيا ، ولما توطد مركز محمد على فى مصر أرسل فى طلب ولديه إبراهيم وطوسون من موطنهما سنة ١٨٠٥ م واستدعى فيما بعد زوجته وأولاده الصغار ، وهم إسماعيل وشقيقتاه سنة ١٨٠٩ ، لم يكن إبراهيم قد أتم السابعة عشرة من عمره حينما عينه والده على قلعة القاهرة ، ثم أرسله سنة ١٨٠٦ رهينة لقاء الخراج الذى وعد الدولة العلية به وتوكيداً لإخلاصه ، فرده الباب العالى بعد سنة نظير خدمات أبيه ، وإعراباً عن نجاح محمد على فى هزيمة حملة الجنرال فريزر الإنجليزية على مصر عام ١٨٠٧.

تعلم إبراهيم فى مصر ، وكان يتكلم اللغات العربية والتركية والفارسية، وتلقى العديد من مبادئ العلوم والفنون ، وفى عام ١٨١٦ أرسله محمد على إلى الجزيرة العربية بغية الوصول إلى نتيجة حاسمة فى الحرب مع الوهابيين التى كان يقودها أخوه طوسون .

حاصر إبراهيم باشا الرس جنوبى القصيم واستولى عليها ثم زحف إلى عنيزة فاستسلمت واقتحم بريدة عنوة ، ثم حاصر الدرعية فى ٦ أبريل سنة ١٨١٨ ، واستمر حصارها خمسة أشهر وبضعة أيام ، وفى ١٩ سبتمبر ١٨١٨ استسلم عبد الله بن سعود ، فأرسله مع أفراد أسرته إلى مصر وانتهت الحرب .

عمل إبراهيم على كسب ود القبائل التى حاربته ، فأعلن الأمان وأغدق المال على من انضم إليه ، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه ، وكان لحسن لقائه وسعة صدره وكرمه أثر ايجابى بالغ ، وعنى بتحصين المواقع الحربية المهمة فى البلاد ووضع فى الوقت نفسه أساس الإصلاح الزراعى فأمر بحفر الآبار ، وعنى بتنظيم التموين فى مكة والمدينة ، وحرص على توفير الأمن على طريق الحج ، وعلى توزيع مرتبات من الغلال على فقراء الحرمين والمجاورين ، ونال فى أثناء ذلك لقب الباشوية من السلطان العثمانى ، عاد إبراهيم مظفراً إلى القاهرة سنة ١٨١٩ ، وبعد ذلك بقليل ولاه السلطان على جدة .

وفى عام ١٨٢٤ م عمت الثورة بلاد اليونان خاصة فى شبه جزيرة المورة و أعلن اليونانيون استقلالهم ، فالتجأ السلطان محمود إلى محمد على باشا وولاه بلاد المورة فأرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش من ١٧ ألف مقاتل و ٧٠٠ فارس مجهزين بالمدافع والبنادق ، وأذهل إبراهيم باشا أوربا حيث قام فى مدة قصيرة بما عجزت عنه الدولة العثمانية فى أربع سنوات فاستولى على مراكز الثوار الحصينة وعلى عاصمة المورة فى يونيه ١٨٢٥ م بعد الاستيلاء على مدينة (كلاماتا) وأعظم الموانئ (نفارين) ، ولم يبق سوى (نوبلى) عاصمتهم فلما بدأ حصارها استغاث به قائد الجيوش التركية لفتح مدينة (ميسولونجى) التى حاصرها لمدة عام كامل فهزمهم واستولى على المدينة الباسلة التى فضل أهلها الموت على الاستسلام .

وفجرت هزيمة الثوار غضب أوربا التى كانت تدعمهم ضد العثمانيين فتحالفت روسيا وإنجلترا وفرنسا فى يونيه ١٨٢٧ م وهزمت أساطيلهم الأسطولين المصرى والعثمانى بميناء (نفارين) ، ورغم رفض إبراهيم باشا وقع محمد على اتفاقية مع الدول الثلاث على سحب الجيش المصرى من اليونان مقابل إعادة باقى سفن أسطوله وأسراه وإطلاق سراح الأسرى اليونانيين إلا أنه نفذ أمر أبيه فقام بالجلاء عنها فى أكتوبر ١٨٢٨م .

وحدث أن ساءت العلاقات بين محمد على وعبد الله باشا الجزار (والى عكا)فسير إليه محمد على جيشاً بقيادة يكن باشا سنة ١٨٣١م من ٣٠ ألف مقاتل ولحق بالجيش إبراهيم باشا قائداً للحملة ورئيس أركانه (سليمان باشا الفرنساوى) ، فاستولى على غزة ويافا وحيفا بسلام واستولى على عكا التى عجز نابليون عن دخولها واستقبله الشعب السورى بالترحاب ووجده خير مخلص من ظلم الأتراك ، وهزم جيشاً عثمانياً قوامه ٢٠ ألف بقيادة (والى طرابلس) فى سهل الزراعة جنوب (حمص) فى أبريل ١٨٣٢م واستولى على حمص بعد أن هزم (السير عسكر حسين باشا) أكفأ قواد تركيا واستولى على دمشق وحماه وحلب شمال سوريا ، وتحصن الجيش العثمانى بـ (مضيق بيلان) الوعر جنوب الاسكندرونة وبمواقعه الجبلية فخاض معه معركة رهيبة استمرت ثلاث ساعات واستولى على الاسكندرونة وانطاكية واللاذقية وعينتاب وقصرية ، وإثر الهزائم المتوالية ألف السلطان العثمانى جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم محمد باشا رشيد أعظم من بقى من القواد الأتراك وبلغ الجيش ٥٣ ألف مقاتل .

وتمت المعركة المعروفة باسم (قونية) بعد سبعة ساعات بهزيمة ساحقة للجيش العثمانى فاقت هزائمه السابقة وأسر محمد باشا رشيد نفسه ولم يبق للسلطان جيش يدافع به عن اسطنبول عاصمة ملكه .

واستولى إبراهيم باشا على (كوتاهية) فاستنجد السلطان العثمانى باعدائه الروس فأرسلوا ١٥ ألف جندى لحماية اسطنبول وضغطوا على محمد على لإيقاف حربه وإبرام اتفاقية (كوتاهية) سنة ١٨٣٣ م (خوفاً من إحلال دولة شابة محل الدولة العثمانية المريضة) .

وأبرم السلطان العثمانى معاهدة دفاعية هجومية مع أعدائه الروس فلم يكن صلح كوتاهية سوى فرصة لإعادة تجهيز الجيش العثمانى ، وبادر السلطان بتدريب جنوده على الأنظمة الحديثة والأسلحة الحديثة تحت رعاية وإشراف الضباط الألمان (أعظم العسكريين فى أوربا) ، وبعث فى يونيه ١٨٣٩ بجيش تركى نظامى قوامه ٤٠ ألف جندى تسانده قوة مماثلة من الجنود غير النظاميين تحصنوا بقلعة حصينة بقرية (نزيب) ، وهاجم إبراهيم باشا الجيش العثمانى فى موقعة (نزيب) أو كما يطلق عليها (نصيبين) وانتهت بهزيمة نكراء فاقت كل هزائم الأتراك السابقة وتوفى السلطان العثمانى بعد تجرعه لنبأ الكارثة ، واجتمعت إنجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا وتم الاتفاق على معاهدة لندن ١٨٤٠ م فى غيبة فرنسا وأملوا شروطهم على محمد على بموافقة الباب العالى بالانسحاب .

وجاءت الهزيمة من الداخل وليست من الخارج ألا وهى ثورة الشعب السورى واللبنانى فى وقت متزامن ضد حكم محمد على وبتأييد من أساطيل إنجلترا ... وأصدر محمد على أوامره إلى إبراهيم باشا بإخلاء سوريا والعودة لمصر ، وطويت الصفحة العسكرية لهذا القائد العظيم .

وفى عام ١٨٤٧ م قام إبراهيم باشا برحلة لأوربا فأستقبل استقبالاً حافلاً فى إيطاليا وباريس وإنجلترا باعتباره القائد العسكرى الذى لم يهزم فى أى موقعة حربية خاضها وأحيط بمظاهر الإجلال من الملوك والشعوب .

ونظراً لمرض محمد على فى عام ١٨٤٨م صدر فرمان بتعيين إبراهيم باشا والياً على مصر ، لكن القدر لم يمهله ليترك بصمته على ولاية مصـــر أو لإقامة الوحدة العربية التى سعى إليها ، فوافته المنية فـــى ١٥ نـــوفمبر ســـنة ١٨٤٨م وعمره لم يتجاوز الستين سنة ولم تزد فترة حكمه عن سبعة اشهر .

باعث نهضة الشرق الحديثة

أفغانى الأصل ... ينتمى إلى الحسين بن على رضى الله عنه ، ولد فى قرية " سعد أباد " عام ١٨٣٩ م ، وقد تعلم الفارسية والعربية ، ودرس العلوم الإسلامية العالية من تفسير وحديث وفقه وتصوف وتاريخ وعلوم اللغة العربية ، وتعلم الفلسفة والرياضة والطبيعة ... إنه جمال الدين الأفغانى .

وقد ظهرت دعوته إلى الجهاد والحرية حوالى عام ١٨٥٠ م ، وبدأ بها فى بلاد الأفغان موطنه الأصلى ، ثم قام برحلة طويلة فى الأقطار الإسلامية إلى مكة ، فأكسبه ذلك تجارب علمية واسعة وخبرة بحياة الشرق ، وتعلم الفرنسية وهو كبير ، وزار فارس والهند والحجاز والأستانة ، وأخذ ينشر دعوته فيها.

غير أن أخصب فترات حياته هى تلك التى قضاها فى مصر من مارس ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩ م ، فقد أحدث انقلاباً فى الأدب ، وجعله يخدم الشعب ويطالب بحقوقه ودفع الظلم عنه ، بعد أن كان الشعراء والأدباء لا هم لهم إلا امتداح الحكام مهما بلغ ظلمهم ... وكان يلقى درساً فى بيته على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه ، منهم الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وأخذ يهيب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، مما جعل الخديو توفيق حين تولى الحكم بعد إسماعيل ، ينفيه هو وخادمه الأمين " أبو تراب " إلى الهند فى ٢٤

أغسطس ١٨٧٩ م ، وكان هذا آخر عهد مصر بجمال الدين الأفغانى ، وإن لم يكن آخر عهدها بآرائه ومبادئه .

وقد أقام جمال الدين الأفغانى فى " حيدر أباد " فى الهند ، منفياً لا يسمح له بمفارقتها ولا يستطيع التحدث أو الخطابة ، وفى هذه الفترة ألف كتابه المشهور فى الرد على الدهريين وعنوانه " رسالة فى إبطال مذهب الدهريين " ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، وقد كتب هذه الرسالة بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة أبى تراب ، وقد رد جمال الدين فى هذه الرسالة على " دارون " ومذهبه فى النشوء والارتقاء .

ولما شبت فى مصر الثورة العرابية ، نقلته حكومة الهند من "حيدر أباد" إلى " كلكتا " وألزمته الإقامة فيها وهو مراقب من قبلها حتى انتهت الثورة بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م ، فأتيح له الذهاب حيث شاء (فى غير الشرق) ، فذهب إلى لندن عام ١٨٨٣ م ، ولم يطل الإقامة بها فانتقل إلى باريس ، وناضل ضد الاحتلال نضالاً مجيداً ، وأنشأ فى باريس صحيفة العروة الوثقى ، وشاركه فى تحريرها تلميذه الشيخ محمد عبده ، ووضع لها يميناً يقسمه من يدخل فيها ، ويتعهد " بأن يبذل ما فى وسعه لإحياء الإخوة الإسلامية ، وإنزالها منزل البنوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين " ... وكان الهدف من إصدار هذه الصحيفة الدعوة إلى الأمل فى المستقبل والتمسك بالمبادئ التى سار عليها الأولون ، والدفاع عن التهم التى توجه إلى الشرقيين ، وتقوية الصلات بين الأمم الإسلامية .

وقد ناهض فى الجريدة الاحتلال الأجنبى فى الأقطار الإسلامية – وخاصة فى مصر – بكل قوته واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب الإثارة ، مما دعا وزارة نوبار باشا إلى إصدار قرار بمنعها ،

وكانت نتيجة ذلك أن احتجبت الجريدة والألم يحز فى نفس جمال الدين الأفغانى، لأن من دعاهم للثورة لم يستجيبوا ، ولأن الجريدة لم تستطع المضى فى دعوتها، وبذلك انتهت مرحلة أخرى من حياة الأفغانى .

ورحل إلى فارس ولكن تنكر له الشاه ، فرحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا حينذاك وأقام بها ثلاث سنوات ١٨٨٦ - ١٨٨٩ م ، وأخذ يناضل عن المسلمين فى روسيا ، كما أخذ يحمل هناك على سياسة إنجلترا ، ثم سافر إلى أوربا ونزل فى ميونيخ بألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعداً بأن يمهد له طريق الإصلاح الذى يقترحه ، وما أن رجع الأفغانى إلى طهران وأخذ يدعو دعوته إلى إصلاح الإدارة وتنظيم الحكم النيابى ، حتى أصبحت النفوس تغلى وتريد الإصلاح فحقد عليه الشاه مرة أخرى ، وقبض عليه جنوده فى هوان وتحقير ، وبعد ذلك سافر إلى لندن ، ثم استدعاه سلطان تركيا فسافر إلى الأستانة ، وأقام بها أربع سنين وبضعه أشهر ، وأخذ يدس له عدوه اللدود " أبو الهدى الصيادى " عند السلطان، إلى أن وفاه الأجل عام ١٨٩٧ م .

وقد تواترت الروايات بأن جمال الدين الأفغانى قد مات مقتولاً ، وتدل الملابسات على ترجيح هذه الرواية ، اختلاف الشاه وسلطان تركيا معه ، وحبس الأخير له فى قصره ووشايات أبو الهدى الصيادى مما يقرب إلى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة ، خاصة أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الأستانة فى ذلك الوقت.

عبد الله النديم ... الثورة من يد إلى يد

برز عبد الله النديم خطيب الثورة الثائر كأحد أهم قادة الثورة العرابية منذ تصاعد الأحداث فى صيف ١٨٨١ حتى هزيمة العرابيين فى سبتمبر ١٨٨٢، ورغم أنه لم يتجاوز السادسة والثلاثين عند اشتعال الثورة إلا أنه احتل مكانة مرموقة بين رجالها وفى تاريخ مصر .

ولد عبد الله النديم (١٨٤٥ – ١٨٩٦ م) فى الإسكندرية فى أسرة متوسطة الحال ، وقد لمح أبوه علامات نبوغه فدفعه ليتلقى العلوم الدينية لكن الفتى اهتم بفنون الأدب ونبغ فيها فبرع فى الكتابة والشعر والزجل ، وتميز النديم فى المناظرات المرتجلة واشتهر بروحه الساخرة .

لم يحترف عبد الله النديم الأدب فى بداية حياته العملية لكنه اتجه إلى تعلم صنعة يتعيش بها فدرس فن التلغراف وكان قد دخل مصر حديثاً ، واشتغل النديم فى مكتب بنها للتلغراف ثم انتقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن الوالدة باشا أم الخديوى إسماعيل ، وكان انتقاله إلى القاهرة بداية لاختلاطه بأعلام الأدب والفن والثقافة فى ذلك العصر فأخذت شهرته تذيع بينهم ، إلا أن إقامته لم تطل بالقاهرة فقد اصطدم بخليل أغا الرجل القوى صاحب النفوذ فأمر بفصله .

رحل عبد الله النديم إلى الدقهلية وأقام بالمنصورة حيث افتتح متجراً هناك ، وخلال إقامته التى لم تستمر طويلاً كان مجلسه مقصداً لرجال الأدب وطلاب العلم ، وبعد تجواله فى عدة مدن وقرى بالدلتا عاد إلى الإسكندرية ليستقر بها وكان ذلك سنة ١٨٧٦ فى فترة صعود الحركة الوطنية ، وهناك اتصل بعناصر من جماعة مصر الفتاة التى كانت تطرح مشروعاً للاصلاح الوطنى والدستورى وهى غير جماعة مصر الفتاة التى أسسها أحمد حسين فى ثلاثينيات القرن العشرين ، وفى تلك المرحلة المهمة من تاريخ مصر والتى شهدت صعوداً للدعوة لسيطرة المصريين على مقدرات بلادهم بدأ عبد الله النديم الكتابة بانتظام فى عدد من الصحف التى أصدرها أديب اسحاق وسليم النقاش ، وفى سنة ١٨٧٩ شارك فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية وأصبح مديراً لمدرستها ، كما تولى تدريس الإنشاء وعلوم الأدب والخطابة بها ، وانشأ فريقاً للمسرح بالمدرسة وقام أعضاء هذا الفريق من تلاميذ المدرسة بالاشتراك مع النديم بتمثيل بعض الأعمال الأدبية الأولى التى ألفها .

ونظراً للنجاح الذى حققته مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فقد وضعت تحت رعاية الأمير عباس حلمى الذى أصبح الخديوى فيما بعد .

لقد ظهر عبد الله النديم على الساحة الأدبية والفكرية فى مصر فى وقت كانت البلاد تموج فيه بتيارات الإصلاح والتجديد ، وكان الشعور الوطنى فى تصاعد مستمر خاصة فى السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل حيث سعى الوطنيون المصريون إلى إنقاذ البلاد من عبء الديون الخارجية التى كانت قد أوشكت أن تهدر استقلال مصر.

وتناول النديم الأوضاع المزرية والأساليب الاستبدادية بالنقد والثورة عبر مجلة اللطائف ، ثم مجلته الساخرة " التنكيت والتبكيت " وهى المجلة التى سببت صداعاً دائماً فى رأس السلطة ، ولم ينج من لسان النديم كبير ولا صغير

بدءاً من الخديوى نفسه ، وانضم إلى رفاقه فى الثورة العرابية وأصبح خطيبها الأول بلا منازع ، ومع شجاعته التى لا تقف عند حد قام بالطواف شرقاً وغرباً يخطب بلسان يبعث الحياة فى قلب الحجر .

ومع انفجار المعركة ازداد النديم نشاطاً واشتعالاً وحرك قلوب الصامتين حتى هب الجميع خلفه وانطلقوا خلف عرابى فى التل الكبير لرد القوات البريطانية عن البلاد بعد أن دعاها الخديوى المتواطئ .

انطلق الجيش وخلفه الشعب يمده بالعتاد والمؤن والسلاح البدائى دفاعاً عن الحرية وتحت تأثير الخيانة المعروفة التى تعرض لها جيش عرابى ، وتمكن " فرديناند ديليسبس " من خداع عرابى عندما أوهمه أن قناة السويس لن يستخدمها الجيش الإنجليزى وهو ما لم يحدث ، ليواجه الجيش المصرى معركة غير متكافئة ، وينسحب عرابى وبعض رفاقه وفيهم النديم ويصلون إلى القاهرة فجراً .

ويتم القبض على معظم قيادات الثورة التى تم قهرها وكوفئ المتواطئون على أعمالهم ، وانطلقت أعمال الانتقام تنال كل من ساعد وتكاتف من أجل وطنه فوقع عرابى ورفاقه بين أيديهم ... وتم نفيهم ... لم ينج من هذا المصير إلا عبدالله النديم والذى استفاد من كونه خبيراً بحياة الصعاب وما كانت بجديدة عليه وفشلت جميع الجهود فى القبض عليه ... وفر نحو تسع سنوات كاملة لأنه لم يكن يحتمل عقوبة النفى ولو ليوم واحد خارج تلك الأرض .

وبعد تسع سنوات من الفرار قبض على النديم ، وحملوه إلى وكيل النائب العام للتحقيق فإذا به " قاسم أمين " الاصلاحى الشهير والذى عرف جيداً رسالة النديم وأثره فأكرم وفادته وعامله معاملة حسنة ثم صدر الحكم ونفى النديم إلى يافا ... غير أن موت الخديوى توفيق أتاح له العودة بعد أن أتى الخديوى الجديد فأصدر أمره بالعفو عنه ... وعاد المجاهد الكبير إلى مصر

ليجد أزمة مشتعلة بين اللورد كرومر والخديو عباس حلمى ويستشعر النديم سكوناً فى الحركة لم يعهده فى الشعب المصرى .

وتساءل بينه وبين نفسه هل عادت النفوس لسابق عهدها؟ ... غير أنه حمد الله بعد قليل على بقاء الجذوة مشتعلة عندما طرق بابه شاب فى مقتبل العمر متحمس ثائر ... جاء إلى النديم يرجوه أن يقص عليه القصة الحقيقية للثورة بعد أن ضاعت ملامح الكفاح بالروايات المغلوطة ... وتأمله النديم فى صمت ... ثم سأله عن اسمه فأجابه الفتى الثائر : " مصطفى كامل " ، الذى تولى الثورة فيما بعد .

وعلى الرغم من أن النديم كان على أبواب عامه الخمسين وقد أدى رسالته إلا أنه لم يصمت ... فأسس مجلة " الأستاذ " وكانت تختلف عن مجلته القديمة " التنكيت والتبكيت " التى كانت تزاوج بين الفصحى والعامية لأن الأستاذ جاءت رصينة الكلمة بالفصحى الوقورة ... فثار رفاق النديم القدامى على صاحبهم ودعوه إلى العودة للعهد القديم ... وعاد النديم ... ليشطها ناراً بحق ... وبدأت الخواطر تهيج شاهدة على القدرات الفائقة لهذا المجاهد ... وتصرخ الجرائد والصحف البريطانية وعلى رأسها التايمز التى طالبت بضرورة اسكات هذا الرجل ... وتدخل الباب العالى وقام السلطان عبد الحميد باستدعائه إلى استنبول ومنعه من الذهاب إلى مصر وقام بإكرامه وتعيينه فى لجنة مستشاريه إلا أن النديم يضيق بالقفص الذهبى الذى نسجه حوله السلطان فيوجه نقده اللاذع إلى السلطان نفسه ويهرب منه وعاد النديم إلى مصر ولم يلبث إلا فترة قصيرة ... ووافته المنية ... فى يوم ١٠ أكتوبر عام ١٨٩٦ م .

لويس داجير ... وحلم امتلاك اللحظات للأبد

لعقود طويلة حاول العديد من العلماء الوصول إلى حلم امتلاك لقطات فوتوغرافية واضحة لأشخاص أو أماكن ، على ألا تتلاشى بعد فترة قصيرة حتى يمكن الاحتفاظ بها وتعددت المحاولات فى هذا المجال حتى جاء لويس داجير الفنان والكيميائى الفرنسى الذى يعد بحق مبتكر التصوير الفوتوغرافى.

ظل لويس داجير (١٧٨٧ – ١٨٥١م) طوال سنوات حياته يرسم الطبيعة والريف الفرنسى ويتجول هنا وهناك لينقل من خلال خطوطه وألوانه جوانب من الحياة المحيطة به ، ونظراً لوجوده فى القرن التاسع عشر وما حواه من تقدم وتطور فى العديد من مجالات الحياة خصوصاً فى مجالات الابتكار والبحث ، راح " داجير " يتساءل أليس هناك طريقة تنقل جمال الطبيعة نقلاً دقيقاً غير الفرشاة ؟

وفى عام ١٨٢٧ التقى لويس داجير بالمبتكر " جوزيف نيبسى " وحاولا فى نفس الاتجاه ، وقد كونا معاً فريقاً يتبادل المعلومات والتجارب ، وصادفهما نجاح محدود فيما يتعلق " بتثبيت " الصورة لتظل دائمة على السطح الحساس للضوء ، وعندما مات " جوزيف نيبسى" عام ١٨٣٣م استأنف " لويس داجير " التجارب بمفرده ، وذات يوم وبعد أن عالج لوحاً معدنياً باليود وضع بإهمال

ملعقة فضية على سطح اللوح وعندما رفع الملعقة فيما بعد لاحظ شيئاً غريبـاً ، فقد كانت هناك صورة باهتة للملعقة على السطح المعدنى .

وأدرك " داجير " على الفور حقيقة ما حدث ... لقد تفاعل اليـود مـع الفضة ليكونا مادة جديدة ، وعندما تعرضت تلك المادة للضوء صـارت داكنـة وظهرت صورة مهزوزة على الصفحة المعدنية .

عندئذ بادر " داجير " بمعالجة الألواح الفضية المصقولة باليود وعرضها للضوء ، فظهرت على الألواح صورة باهتة ، وأدرك " داجير " أنه على أعتاب شئ ما إلا أنه كانت هناك مشكلتان فقد احتاجت الصور إلى وقت طويـل مـن التعرض للضوء حتى تظهر ، ثم أنها كانت تخبو سريعاً لأن " داجير " لم يكـن يعرف كيف يثبتها بشكل دائم على الألواح .

وذات يوم ربيعى عام ١٨٣٥م وبعد أن عرض لوحاً فضياً آخر للضوء، قرر " لويس داجير " أن يخلد للنوم مبكراً ، ولذلك وضع اللوح الذى لم يكتمـل تعرضه للضوء داخل خزانة الكيماويات ، وعندما عاد فى صباح اليوم التـالى لإحضار اللوح من الخزانة لم يصدق عينيه لقد كانت هناك صورة واضحة على اللوح ، فقد تم إظهار الصورة – بطريقة ما – خلال الليل ... من نفسها .

وأدرك " داجير " أنه صار قريباً من كشف مهم ، وشك فى أن شيئاً ما داخل الخزانة قد قام بإظهار الصورة ، ولكن أى الكيماويات قد كان السـبب ؟ فعمد كل يوم إلى وضع ألواح لم يكتمل تعرضها للضوء داخل الخزانة ، وأخـذ يستبعد كل يوم مادة كيميائية من الأرفف ، ولكن الألواح ظلت بطريقة غامضة ترفض أن تظهر عليها الصورة .

وعندما لم يعد هناك بالخزانة أى مواد كيميائية قام " داجير " بوضع لوح بها وفى الصباح ظهرت صورة على اللوح فأصيب " داجير " بالحيرة الشديدة ،

فكيف يمكن أن يكون ذلك قد حدث ؟ ثم قام بفحص الخزانة جيداً واكتشف قطرات صغيرة من الزئبق الذى انسكب فى أحد الأركان ، إنه إذاً بخار الزئبق، وقد استخدم " داجير " بخار الزئبق ليقلل من زمن تعرض الألواح للضوء ، ثم بقيت مشكلة واحدة وهى أن الصورة ظلت تسود بعد إظهارها .

و بعد بضعة سنين من التجارب اكتشف " داجير " أن مادة كيميائية أخرى هى " هيبوكبريتات الصوديوم " قادرة على " تثبيت " الصورة فوق اللوح الحساس وأدى ذلك الاكتشاف إلى اكتمال عملية التصوير ، فالصور يمكن اسقاطها على اللوح الحساس للضوء ثم يتم اظهارها ثم تثبيتها بشكل دائم لا تخبو بعده مرة أخرى .

وقد أحدث ابتكار " داجير " دوياً هائلاً عندما أعلنه على الملأ حين عرض أول مجموعة من صوره فى قصر " مازران " عام ١٨٣٩.

ثم طور العالم الإنجليزى " وليام فوكس تالبوت " عام ١٨٣٥ م عملية التصوير الفوتوغرافى التى ما زالت تستخدم حتى اليوم فقد اكتشف أن تغطية ورقة بأحد مركبات الفضة ثم تعريضها للضوء يؤدى إلى تكون صورة سلبية (نيجاتيف) ومنها يمكن الحصول على أى عدد من الصور الإيجابية .

ثم حقق الألمانى " أوسكار بارناك " فى عام ١٩١٣ شهرة عالمية من خلال آلة التصوير لايكا ، فقد كان اختراع " إدوين لاند " للتصوير الفورى عام ١٩٤٧ انطلاقة كبيرة لعالم التصوير ، وكان ذلك الاختراع يعنى التخلى عن الطريقة القديمة بتحميض الأفلام حيث أصبحت هذه العملية تتم داخل الكاميرا وفى وقت قصير جداً ، كما لم تعد الأفلام تحتاج لكثير من المواد الكيميائية والإضاءات الخاصة لتظهير الأفلام ، وإنما استخدمت التقنية الجديدة نفس مواد الأفلام ولكن بإضافة بعض المواد الجديدة .

والحقيقة أن تقنية التصوير الفورى كانت لها الكثير من الفوائد فى كثير من المجالات ، إلا أن المجال الطبى كان له نصيب الأسد من هذه التقنية . وفى عام ١٩٦٩ رافقت آلة التصوير السويدية – هازيل بلاد – رواد الفضاء فى أول رحلة حقيقية إلى القمر ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الآلة تدهش المحترفين بتقنياتها العالية والمتلاحقة بعد انتشار الكاميرا – الديجيتال – الرقمية .

تشايكوفسكى
أعظم الموسيقيين الروس

يعد تشايكوفسكى (١٨٤٠ – ١٨٩٣م) من أوائل الموسيقيين الروس الذين اشتهروا عالمياً ، فقد كان متمكناً من تنسيق الفرقة الموسيقية – الأوركسترا – بمقدرة فذة على مزج أصوات الآلات الموسيقية المختلفة لخلق الأثر الموسيقى المتنامى ، وكانت له أيضاً موهبة خاصة فى كتابة المقطوعات الغنائية .

ولد تشايكوفسكى فى مدينة فوتكنسك فى روسيا ، دخل مدرسة القانون فى سان بطرسبرج عام ١٨٥٥م ثم اتجه إلى دراسة الموسيقى فى معهد الموسيقى بسان بطرسبرج من عام ١٨٦٢ – ١٨٦٦م ، كان تشايكوفسكى أول الموسيقيين الذين تلقوا تدريباً منظماً فى أساسيات الموسيقى ، وفى السادسة والعشرين من عمره عين أستاذاً لتدريس الموسيقى فى معهد موسكو للموسيقى من عام ١٨٦٦ – ١٨٧٧م ، كانت بدايته الجدية فى التأليف فى حوالى عام ١٨٦٦ م ، تطورت أحاسيسه وانفعالاته فى هذه الأثناء خلال فترات طويلة من الإحباط النفسى ، ومن المثير للعجب أنه قد ألف بعضاً من أكثر مقطوعاته الموسيقية بهجة خلال هذه الفترة.

وكانت تمده بالمال سيدة واسعة الثراء لم يرها فى حياته ، وهى

الكونتيسة " ناديجدة فوميك " التى أحبته بالسماع فكتبت إليه ، واستمرت العلاقة الوثيقة بينهما بالمراسلة حتى قبيل وفاته بثلاث سنوات ، هى تمده بالمال وتشير عليه بالنصيحة وهو يبثها لواعجه ويسرد عليها مشاكله لمدة أربعة عشر عاماً.

كانت موسيقى تشايكوفسكى تجمع بين أناقة الكلاسيكية وديناميكية إيقاع أغانى الفولكلور الروسى بسهولة متوازنة ، أما فيما قبل تشايكوفسكى فقد كانت الموسيقى تكتب مصاحبة للرقص فقط لا غير ، إذ كان الباليه عادة يتكون من مجموعة من الرقصات أكثر منه عمل مترابط يدخل فى إطار الدراما ، ومن أهم ما يميز موسيقى المؤلف الروسى قدرة موسيقاه على تجسيد الحركة لكونها قابلة للرقص بشكل طبيعى ، وتدعم الحركة على المسرح أكثر من أى باليه روسى سابق .

وأهم مؤلفات تشايكوفسكى الغنائية " أوبرا أوجين أونجين " و " سيدة الكونتشينة " ، أما فى موسيقى الآلات فأهم مؤلفاته رباعيته الوترية الثالثة وقصيدته السيمفونية " مانفرد " وافتتاحياته السيمفونية " العاصفة " و " روميو وجوليت " و " هاملت " و " فرانشسكا داريمينى " كما ألف كونشرتو للبيانو "الأول" وآخر للفيولينه ومؤلفات عدة للباليه أهمها " بحيرة البجع " و " كسارة البندق " و " الجمال النائم " .

ومن المفارقات المثيرة أن " بحيرة البجع " أول أعمال تشايكوفسكى للباليه الذى كتبه بتكليف من المسرح الإمبراطورى فى موسكو وقدم لأول مرة على مسرح البولشوى عام ١٨٧٧م ، لم يحقق النجاح المنتظر لأسباب متعددة ليس من بينها بالطبع ما يتعلق بقيمة وتأثير الموسيقى فى حد ذاتها ، لكن السبب الحقيقى فى صدمة هذا الإخفاق يرجع لمصمم الرقصات يوليوس ريزينجر، ووجهة نظره القاصرة التى افترضت أن هذه الموسيقى غير قابلة للرقص بشكل كامل ، فقام باقتطاع أجزاء منها واستبدلها بقطع موسيقية لمؤلفين آخرين ،

أضف إلى ذلك أن قائد العرض الأول كان من الهواة حتى أنه أعلن بعد العرض أنه لم يشاهد من قبل مدونة موسيقية للباليه بهذا التعقيد، والغريب أن تشايكوفسكى صدق بالفعل أن الباليه فشل بسبب موسيقاه ، فإذا به يقرر فى ذلك الوقت إعادة كتابة النوتة الموسيقية ، لكن القدر لم يمهله وفارق الحياة قبل تنفيذ قرار إعادة كتابة رائعته الموسيقية الفريدة من نوعها ، إلى أن جاء عام ١٨٩٥م أى بعد وفاة تشايكوفسكى بعامين ، عندما قام مصمم الرقصات الفرنسى ماريوس بتيبا ١٨١٩ – ١٩١٠ م وبمعاونة الروسى ايفانوف ١٨٣٤ – ١٩٠١م بوضع تصميم وإخراج جديد للباليه ملتزمين بموسيقى تشايكوفسكى.

كارل ماركس

فيلسوف ألمانى وسياسى وصحفى ومنظر اجتماعى قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية ، لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية ، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعى .

ولد كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣ م) فى مدينة ترير بولاية رينانيا الألمانية ، ونشأ فى أسرة يهودية اعتنقت المذهب البروتستانتى بعد ذلك ، التحق كارل ماركس بالمدرسة الثانوية فى سن الثانية عشرة وحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية بتقدير امتياز فى سن السابعة عشرة ، وبعد حصوله على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٨٤١ التحق كاستاذ بجامعة بون.

كانت فترة إقامة ماركس فى برلين فرصة للتعرف على عدد من المدارس الفكرية وبعد انتقاله إلى مدينة بون بدأ شغب ماركس الفكرى ينتقل إلى السياسة حيث أنشأ صحيفة تنتقد أسس الحكم فى بروسيا ، مما أدى إلى مصادرة الصحيفة وتجريده من الجنسية البروسية ، فهاجر ماركس إلى باريس بصحبة زوجته .

وفى عام ١٨٤٤ وعندما زاره صديقه فريدريك إنجلز فى باريس وبعد

عدة مناقشات مع بعضهما البعض وجد الصديقان بأنهما قد توصلا إلى أفكار متطابقة حول طبيعة المشاكل الثورية وبشكل مستقل عن بعضهما البعض ، ونتيجة لهذا التوافق بينهما عملا معاً وتعاونا لتفسير أسس ومبادئ نظريات الشيوعية والعمل على دفع الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة الديمقراطية لتعمل وتتفانى من أجل تلك المبادئ ، فقد عاش كارل ماركس وصديقه فى القرن التاسع عشر ، وهى فترة اتسمت بانتشار الرأسمالية الصناعية من خلال تشكيل الطبقات العمالية الأوربية .

وفى عام ١٨٤٥ أجبر ماركس على مغادرة فرنسا الى بروكسل بسبب نشاطاته الثورية .

وفى عام ١٨٤٧ اجتمع الشيوعيون ليؤسسوا عصبتهم وفوض ماركس وإنجلز ليشكلوا مبادئ هذه العصبة وبرنامجها المتبع ، وكان هذا البرنامج قد عرف فيما بعد باسم (البيان الشيوعى) وكانت عصبة الشيوعية قد قامت على أنقاض جماعة رابطة العادلين فى فرنسا والتى كانت لا تؤمن بضرورة الثورة والاستيلاء على السلطة وكان شعارها (الناس كلهم إخوة) وقد أقنع ماركس أعضاءها بأنهم يحلمون بعالم وردى واستبدل الشعار إلى أن صار (يا عمال العالم اتحدوا).

كان البيان الشيوعى يمهد لعقيدة الاشتراكية العلمية ويجسد المادية التاريخية بعيداً عن الكنيسة أو الدين (باعتقاد ماركس أن الدين أفيون الشعوب) .

إن أسس وجوهر البيان الشيوعى تقوم على افتراض أنه منذ فجر الإنسانية وحتى اليوم كانت العلاقة علاقة صراع بين المستغل والمستغل ... بين المالك والعامل ... بين الفلاح والاقطاعى ... استغلال الإنسان للإنسان وأمة لأمة ، وكانت الغلبة تنتهى إما لإحداهما أو بسقوطهما معاً .

وبالطبع فإن غلبة أى منهما تحدد طبيعة الاقتصاد القائم ، وعلى افتراض بأن تفكك الطبقة الإقطاعية كان نتيجة فسادها واعاقتها للبرجوازية ... فإن المنطق يفرض حتماً بأن مستوى تطور الطبقة البرجوازية (الإنتاج الكبير) سيصل بها إلى حد لا تستطيع فيه التقدم ، وعندها ستقوم البروليتاريا بسحق هذه الطبقة (البرجوازية) ورفع الظلم عن الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وعندها يتحقق المجتمع الشيوعى حيث تنتفى فيه الملكية الخاصة (وليس الملكية الشخصية) حيث الملكية الخاصة هى الناتجة عن استغلال العمال وأخذ ما ينتجونه من القيمة المضافة دون أدنى جهد يذكر من قبل الرأسمالى ... أما الملكية الشخصية هى ما تحصل عليه نتيجة القيام بعمل .

فى عام ١٨٤٨ قامت الثورة فى فرنسا وألمانيا وخافت الحكومة البلجيكية من امتداد الثورة إليها ، وقامت بنفى ماركس الذى ذهب أولاً إلى باريس ثم كولونيا وقام بتأسيس صحيفة جديدة وانضم إلى أعمال ثورية هناك ودأب على تنظيمها ، وفى عام ١٨٤٩ تم اعتقاله وحوكم فى كولونيا بتهمة التحريض على التمرد العسكرى ... ثم تمت تبرئته ونفيه من ألمانيا وتم إيقاف مجلته الجديدة التى كان يرأس تحريرها .

وفى عام ١٨٤٨ شهدت أوربا ثورة عندما قامت الطبقة العاملة فى فرنسا بالسيطرة على السلطة ، وقامت الحكومة الثورية باستدعاء ماركس للبقاء فى فرنسا بعدما طردته حكومات فرنسية سابقة ، وعندما أفلت شعلة الحكومة الثورية الفرنسية فى عام ١٨٤٩ انتقل ماركس للعيش فى لندن وقام بكتابة الكثير من المؤلفات التى تعنى بالسياسة والاقتصاد ، كما عمل كمراسل أوربى لصحيفة " نيويورك تربيون " من موقعه فى أوربا وخلال هذه الفترة كان قد قام بعدد من الأعمال وصنفت على أنها كلاسيكيات النظرية الشيوعية .

وفى لندن ألف ماركس كتبه التى مهدت الطريق للاتجاه الفلسفى

والفكرى الذى حمل اسم الماركسية ، من بين مؤلفاته " الصراعات الطبقية فى فرنسا من سنة ١٨٤٨ حتى ١٨٥٠" و " نقد الاقتصاد السياسى " الذى قام بنشره عام ١٨٥٩ ، وفى سنة ١٨٦٧ ظهر الجزء الأول من مؤلفه الضخم " رأس المال" ، أما الجزء الثانى فنشره إنجلز بعد وفاة رفيق عمره ماركس وبجانب الكتابة حاول الاثنان تنظيم الحركة العمالية ، حيث أسسا " الجمعية الدولية للعمال " التى كان لها شعبية فى عدد من دول العالم كأمريكا والمانيا ، وشكلت هذه الجمعية الانطلاقة الأولى لتأسيس عدد من الأحزاب اليسارية منها الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ، وفى عام ١٨٨٣ توفى كارل ماركس فى منفاه بلندن عن عمر يناهز الخامسة والستين.

أعظم ممثلة فى تاريخ المسرح

سارة برنار ... فرنسية ... ولدت عام ١٨٤٥ م من أبوين احدهما فرنسى والآخر هولندى ، تلقت بعد ذلك أوفى دراسة مسرحية كانت متاحة فى ذلك العصر ... وفى سن الثالثة عشرة بدأت تتمرن تمريناً جدياً على التمثيل ، والتحقت " بكونسرفتوار باريس " ووقفت لأول مرة على خشبة المسرح لتؤدى دوراً صغيراً فى مسرحية " ايفيجلين " للشاعر الفرنسى الكبير راسين ولكنها لم تنل نجاحاً كبيراً فى هذا الدور ... وكان أول نجاح حقيقى أحرزته عندما مثلت دورها فى مسرحية " العابر " للكاتب الفرنسى " فرانسوا كوبيه " عام ١٨٦٩ م ولكن سرعان ما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا فعملت سارة برنار فى الإسعاف .

وعندما أعيد افتتاح مسرح " الاوديون " عام ١٨٧٢ م مثلت سارة برنار دور " كورديليا " فى مسرحية " الملك لير " لشكسبير ، كما مثلت دور الملكة فى مسرحية " روى بلاس " لفيكتور هوجو ... وبتمثيلها هذين الدورين أدرك الشعب الفرنسى أنه أمام عبقرية جديدة سيلمع نجمها بين عظماء المسرح.

وفى عام ١٨٧٤ م اكتشفت سارة أن القوة هى ميزتها الأولى وموهبتها المميزة وتجلى هذا الاكتشاف واضحا عندما مثلت دور " فيدرا " فى مسرحية

راسين المعروفة بهذا الاسم ... ومنذ قيامها بتمثيل هذا الدور انطلقت من نجاح إلى نجاح ، وعندما مثلت دور " دوناسول " فى مسرحية " هرنانى " لفيكتور هوجو اختار الناس لها مجمعين صفة العبقرية واستطاعت أن تحصل لنفسها على لقب أعظم ممثله مسرحية فى التاريخ.

وفى هذه الفترة انتشرت فى أنحاء العالم " أساطير سارة برنار " التى سرعان ما تحولت إلى حقائق عندما قامت برحلات ناجحة عرضت فيها فنها فى معظم عواصم أوربا وأمريكا واستراليا ومصر.

تزوجت عام ١٨٨٢ م بممثل يونانى ... غير أن زواجها لم يستمر أكثر من عام واحد ولم يؤد إلا إلى تغيير جنسيتها من فرنسية إلى يونانية ، وهو ما عاقبتها عليه فرنسا بالتسويف فى رد جنسيتها إليها حتى عام ١٩١٦ م .

وفى عام ١٨٩٩ م افتتحت مسرحها الخاص " مسرح سارة برنار " وقدمت فى حفلة الافتتاح مسرحية " توسكا " مرة أخرى ... وفى عام ١٩٠٠م قدمت مسرحية " النسر الصغير " لادمون روستان وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين ومع ذلك قدمت برهاناً ساطعاً على قدرتها على تمثيل أدوار الشبان فى أدائها لدور النسر الصغير أو ابن نابليون .

وعندما بلغت سن الشيخوخة ظهرت فى إنجلترا على مسرح "الكوليزيوم" فى مقتطفات من مسرحياتها واستطاعت أن تسمع الجمهور الكبير – الذى ملأ ذلك المسرح الواسع – صوتها مجلجلاً دون الاستعانة بأى مكبر للصوت ، وأن تنال إعجاب ذلك الجمهور الذى لم يكن معظم أفراده قد شاهدوا شيئاً من أمجادها السابقة.

وفى عام ١٩١٥ م أصيبت بمرض فى إحدى ساقيها وعلى الرغم من ذلك المرض ، انتقلت إلى خطوط القتال الأمامية لتشترك بمسرحياتها فى الترفيه عن الجنود المقاتلين .

وعندما بلغت السابعة والسبعين كانت لا تزال محتفظة باعتدال قوامها وأهم مواهبها وهى موهبة الصوت والإلقاء ... بل إن السينما دعتها للظهور فى بعض أفلامها ولكن المرض غلبها على أمرها وتوفيت فى ٢٦ مارس ١٩٢٣م بباريس ، وخرجت المدينة كلها لتشييع جنازتها ، وفى لندن أقيم لها احتفال جنائزى رسمى فى كاتدرائية وستمنستر حضره الملك والوزراء والسفراء .

المافيا

نشأت المافيا فى وقت ما خلال منتصف القرن التاسع عشر فى جزيـرة صقلية ، وأصبحت بحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر القوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المسيطرة فى غربى صقلية ، وعملت فى بادئ الأمر فى أعمال الحماية والابتزاز فى منطقة بالرمو وما حولها مـن مـزارع الليمـون والبرتقال ، وضمت بين طياتها بعضاً من أفراد الارستقراطية الحاكمة ، حيـث انقسم المجتمع فى بداية الدولة الإيطالية الناشئة إلى الساسة وأصحاب الأراضى، ودخلت المافيا بين هذين الفريقين كما كانت المحرك للعديد من أفراد الحكومـة ورجال الأعمال ، واتبع أفرادها شفرة خاصة تسمى " أومرتـا " تمنـع إفـادة الشرطة بالجريمة .

وأصبحت المافيا بقوانينها ومجالس قضـائها وشـرطتها وجواسيسـها وجامعى الضرائب لها وأساليبها فى معاقبة من يتصـدى لمنافسـتها وخـوف الأهالى منها دولة داخل الدولة ، ثم أصبحت دولة فوق الدولة.

وفى مطلع القرن التاسع عشر تبدد شمل جيش الاقطاعيين المكون مـن هؤلاء الحراس المسلحين ، ولكن هؤلاء الحراس عاشوا بعد ذلك ومنهم نشـأت المافيا ، ولما التجأ بلاط نابولى إلى صقلية فراراً من جيش نابليون ، امـتلأت

الجزيرة بأعضاء المافيا ، واتخذ الملك من بعض رجال هذه العصابات حرساً يدفع لهم من ماله الخاص ، ويعتمد عليهم فى المحافظة على الأمن فى الجزيرة، وقد تغلب رجال حرس الملك على غيرهم، واحتكروا وحدهم اللصوصية والإجرام ، وقويت شوكتهم وصار الناس ينظرون إليهم بعين الإعجاب والخوف، وأصبح أعيان الجزيرة وفقراؤها يدفعون لهم ضريبة الحماية وحفظ الأمن ، وظلت المافيا نافذة الكلمة مرهوبة الجانب حتى شهر مايو سنة ١٩٢٤.

ففى هذا الشهر جاء موسولينى إلى الجزيرة وألقى فى مدينة بالرمو خطبة من خطبه الحماسية وهدد فيها المافيا بالحديد والنار .

واستدعى موسولينى " شيزارى مورى " حاكم بالرمو ، وكان قد اشتهر بقدرته على تناول مشكلة المافيا ، فعقد مورى العزم على مهاجمة المافيا فى أمنع معاقلها ليقنع أهل الجزيرة بأن الحكومة أقوى ساعداً وأعظم صولة من المافيا التى طال استبدادها بالأمر فى الجزيرة .

وكان معقل المافيا الحصين يقع فى سلسلة الجبال الممتدة بين مسينا وبالرمو ، وكانت المافيا مسيطرة سيطرة تامة على القرى الواقعة فى سفوح الجبال ، وكانت الرحلة إليها شاقة تعترض السائر خلالها الأجراف الشاهقة والهاويات العميقة ، ولا تأمن فيها اعتداء كمين أو هجوماً مفاجئاً من الخلف ، وكانت فى وسط هذه المنطقة الوعرة قرية " جانجى " الواقعة فوق جبل بعيد منعزل ، وكانت البيوت الواقعة على جانب الجبل تشرف على جزيرة صقلية برمتها ، ومعظمها يمكن الدخول إليه من طريق أعلى ومن طريق آخر أسفل ، ولها بابان باب من ناحية سقفها وباب آخر من الطبقة السفلى من البيت ، وكان يربط بين الكثير من هذه البيوت ممرات تحتية محفورة فى الجبل ، ولها مخابئ وأبواب سرية مختبئة خلف المرايا وتحت الأرض .

وبدأت الحملة الحاسمة بمناوشات بعيدة عن قرية " جـانجى " وكانـت بدايتها لا تختلف عن الحملات السابقة ، ولكن الحملة أخذت تشتد وتقوى فى أيام قلائل ودنت الحملة من " جانجى " وقبل أن يفطن رجال المافيا لقـوة الحملـة ويستشعروا عنفها ، كانوا قد أحيط بهم من كل ناحية ، ولم يبق أمـامهم سـوى الاعتصام بقرية جانجى نفسها ، ولما علم مورى بذلك من عيونه وطلائعه أرسل قوات أخرى لمحاصرة جانجى ، وطوقت القرية تطويقا تاماً ، وقطعت أسـلاك التليفون والتلغراف بها ، وأرسل مورى منادياً من قبله يعلن أن على المختبئين أن يخرجوا من مكامنهم ويسلموا أنفسهم خلال اثنتى عشرة ساعة ، وبعد انقضاء هذه الفترة ستتخذ إجراءات شديدة حاسمة ، وعمـل مـورى علـى أن يظـل المُختبئون منعزلين منفردين ليفيد من تخويفهم وإرهـابهم ، وكـان يقصـد ألا يهزمهم فى ميدان الحرب لأن هزيمتهم فى ساحة الحرب تحفظ لهم مكـانتهم ، وهو يحرص على أن يكتشف الناس ضعفهم ، وينظهرهم فى مظهـر الجبنـاء المستسلمين ، ويجعلهم أضحوكة للعالم ، وأخذ رجال الشرطة يدخلون البيـوت بيتاً بيتاً ويذبحون الماشية المسروقة ويبيعون لحمها للناس بأسـعار مضـحكة ، وكان الخوف ما يزال يمنع الناس من التقدم لشرائها ، ولكن هذه الأنباء بلغـت المختبئين ، وكان لها فى نفوسهم وقع شديد ، وأخذ الكثير من الأشياء المسروقة المحفوظة فى منازلهم، وبيعت بأثمان زهيدة ، وأخذ أهل الجزيرة يسخرون من هؤلاء الأبطال المعروفين بقوة العزم وشدة البأس الذين تنهب بيوتهم ويباع مـا بها بأبخس الأثمان ، وهم مع ذلك لاتذون بالمخابئ شأن الجبناء المستضـعفين وأخذ هؤلاء الرجال الذين ملأوا نفوس الناس خوفاً ورعباً فى الاستسلام والقاء السلاح ، والكف عن المقاومة ولم يحتفظ بإبائه سوى الزعيم القـديم " جيتـانو فاريلو " فقد أرسل لمورى رسالة يعده فيها بشرفه بأنه سيسلم نفسه فـى قاعـة استقبال عمدة القرية وسار فى خطوات رزينة رافع الرأس إلـى دار العمـدة ،

وسلم هناك عصا كبيرة كما يسلم قائد الجيش عصاه بعد هزيمة جيشه ، وقد شنق نفسه بعد ذلك فى السجن .

واستسلم سائر أعضاء المافيا بين ضحكات المزارعين الساخرة وسرورهم وفرحتهم ، وامتلأت سيارات الحكومة بمجرمى الجزيرة وجمعت الأدلة التى تدينهم ، ولقى كل مجرم العقاب الرادع ، وأقسم الأعيان والمزارعين يمين الولاء للملك والقانون وطاعة الدولة ، وتطهرت أودية جبال الجزيرة وأدغالها ، وقضى على قوة المافيا .

ولم تقوى شوكة المافيا فى إيطاليا حتى قيام الحرب العالمية الثانية حيث هاجر الكثير من الصقليين إلى الولايات المتحدة ، وفى العشرينيات أصبح الأمريكيون الذين ينحدرون من أصل إيطالى يسيطرون على كل الجرائم المنظمة فى الولايات المتحدة خاصة فى شيكاغو ونيويورك .

وقد استخدمت أمريكا الاتصالات الإيطالية بالمافيا الأمريكية خلال اجتياح إيطاليا وصقلية فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣ فقد قام لاكى لوتشيانو وأعضاء آخرين فى المافيا الذين اعتقلوا خلال هذا الوقت بأمريكا بمد الاستخبارات الأمريكية بالمعلومات لتسهيل الطريق أمام القوات الأمريكية المتقدمة ، وسمح للوتشيانو بإدارة شبكته من زنزانته جزاء مساعدته ، وبعد الحرب تمت مكافأته بترحيله إلى إيطاليا ، حيث استكمل نشاطه هناك .

مثلث برمودا

فى عام ١٩٤٥ ، وفوق منطقة مثلث برمودا كانت قد انطلقت من قاعدة لوديردیل بولاية فلوريدا الأمريكية خمس طائرات فى مهمة تدريبية فى رحلة تبدأ من فلوريدا وكانت تطير على شكل مثلث .

كان عدد أفراد هذا السرب خمسة طيارين وثمانية مساعدين على قدر عال من المهارة والخبرة ، وكان قائد هذا السرب الملازم " تشارلز تيلور " الذى يمثل رأس المثلث وفى أثناء أداء المهمة كان السرب يتجه فى لحظة ما نحو حطام سفينة شحن بضائع يطفو على سطح المحيط جنوب بيمينى وأثناء انتظار القاعدة الجوية لرسالة من (السرب ١٩) لتحديد ميناء الوصول وتعليمات الهبوط ، تلقت القاعدة رسالة غريبة من قائد السرب تقول : " القائد (الملازم تشارلز تيلور) ينادى القاعدة : نحن فى حالة طوارئ يبدو أننا خارج خط السير تماماً ، لا أستطيع رؤية الأرض ، لا أستطيع تحديد المكان ، اعتقد أننا فقدنا فى الفضاء ، كل شئ غريب ومشوش تماماً لا أستطيع تحديد أى اتجاه حتى المحيط أمامنا يبدو فى وضع غريب لا أستطيع تحديده "

يقع مثلث برمودا غرب المحيط الأطلنطى تجاه الجنوب الشرقى لولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية ، تبلغ مساحته حوالى ٧٧٠,٠٠٠ كم مربعاً،

ويقع رأسه الشمالى فى جزيرة برمودا وهى مستعمرة بريطانية عاصمتها "هاملتون" ، ويقع رأسه الجنوبى الشرقى فى " بورتوريكو " وهى قاعدة عسكرية أمريكية تتكلم الأسبانية ، ويقع رأسه الجنوبى الغربى فى ميامى بولاية فلوريدا الأمريكية ، ثم إلى كوبا ثم هاييتى ثم بورتوريكو ثم مرة أخرى إلى برمودا .

ويحتوى مثلث برمودا على أكثر من ٣٠٠ جزيرة ، مائة منها لم تطأها قدم إنسان أجنبى لأن الملاحين والصيادين يتجنبونها لسر غامض يحيط بها من قديم ، واشتهرت باسم "جزر الشيطان ".

وقد استعمل تعبير " مثلث برمودا " لأول مرة فى مقال كتبه فنسينت غاديز لمجلة المركب التجارى عام ١٩٦٤ ، أشار فيه إلى أن عدداً من السفن والطائرات اختفت بدون تفسير فى هذا المكان الغريب ، ولم يكن غاديز أول من تحدث عن هذا الأمر فقد كان الرحالة الشهير كريستوفر كولمبس أول من اجتاز هذه المنطقة وحكى عن مشاهدات وظواهر غريبة صادفها أثناء اجتيازه لها ، ثم تتابعت الكتابات المختلفة حول هذا الموضوع .

وقد أشارت رحلات البحث الجديدة إلى وجود عدد كبير من السفن والقوارب والغواصات راقدة فى أعماق هذا البحر حيث يرجع تاريخها إلى فترات زمنية مختلفة ، ومعظم هذه السفن غاصت فى أعماق هذا البحر فى ظروف غامضة ، هذا إلى جانب اختفاء عدد كبير من السفن والقوارب دون أن تترك أى أثر ، وأيضاً فى أعماق هذا البحر يوجد المئات من الهياكل العظمية لبحارة وركاب هذه السفن الغارقة .

وقد بدأت ظاهرة اختفاء السفن فى هذه المنطقة عام ١٨٥٠ حيث اختفت خمسون سفينة ، استطاع بعض قادتها أن يبعثوا رسائل فى لحظات الخطر ، وكانت هذه الرسائل مبهمة وغامضة ، ولم يستطع أحد أن يفهم منها شيئاً ، وتلى

ذلك أحداث من أهمها السفينة الإنجليزية " أتلنتا " التى اختفت عام ١٨٨٠ وعدد أفرادها ٢٩٠ فرداً ، والسفينة الأمريكية " سايكلوب " التى اختفت عام ١٩١٨ وعدد أفرادها ٣٠٩ فرداً ، والغواصة الأمريكية " سكوربيون " التى اختفت عام ١٩٦٨ وعلى متنها ٩٩ بحاراً.

وفى عام ١٩٤٥م اختفت طائرتان من قاذفات القنابل تابعتان للقوات الأمريكية، وفى عام ١٩٤٨م اختفت طائرة الركاب البريطانية " ستارتيجر " وعلى متنها ٣١ راكباً ، وفى عام ١٩٤٩ اختفت طائرة الركاب البريطانية "ستار أريل" وعلى متنها ٣٧ راكباً ، وفى عام ١٩٥٦م اختفت الطائرة (P5M) التابعة للبحرية الأمريكية مع طاقمها المكون من عشرة أفراد .

وقد تعددت التفسيرات حول مثلث برمودا ، وإن لم يتم التأكد من أى منها ، مثل نظرية الزلازل التى تشير إلى أن حدوث الهزات الأرضية فى قاع المحيط تتولد عنها موجات عاتية وعنيفة ومفاجئة تجعل السفن تغطس وتتجه إلى القاع بشدة فى لحظات قليلة ، وبالنسبة للطائرات يتولد عن تلك الهزات والموجات فى الأجواء ما يؤدى إلى اختلال فى توازن الطائرة وعدم قدرة قائدها على السيطرة عليها ، ونظرية الجذب المغناطيسى التى تشير إلى أن أجهزة القياس فى الطائرات أثناء مرورها فوق مثلث برمودا تضطرب وتتحرك بشكل عشوائى وكذلك فى بوصلة السفينة مما يدل على وجود قوة مغناطيسية أو قوة جذب شديدة وغريبة .

حرب القرم

وقعت بين عامى ١٨٥٣ – ١٨٥٦م ، حيث اتسمت العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية بقدر كبير من العداء والدموية ، فمنذ سيطرة القياصرة على الحكم فى روسيا ، أراد الروس أن تكون روسيا دولة كبرى على مسرح السياسة الأوربية والدولية ، واختلطت هذه الأطماع فى بعض الأحيان بعواطف دينية متعصبة ، متمثلة فى حماية الارثوذكس فى العالم ، والسيطرة على القسطنطينية التى فتحها السلطان محمد الفاتح ، وكذلك السيطرة على الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين .

حين رأت الدولة العثمانية التنافس بين الدول الكبرى على إدارة الأماكن المقدسة للمسيحيين فى فلسطين عملت على حفظ التوازن بين هذه الدول ، لكن ضغوط بعض الدول الكبرى جعلت العثمانيين يمنحون بعض الدول امتيازات خاصة ، فقام السلطان العثمانى بمنح امتيازات جديدة عام ١٨٥٢ للكاثوليك (الذين كانت تمثلهم فرنسا) وهو ما يعنى أنه خضع للضغوط الفرنسية .

تسبب هذا الموقف فى استياء روسى من السلطان العثمانى ، ووجدت روسيا فيه ذريعة ومبرراً يتيح لها حرب الدولة العثمانية ، معتمدة على البعد الدينى وحماية المسيحيين الارثوذكس .

أرسل القيصر الروسى بعثة دبلوماسية إلى استانبول رأسها السفير الروسى فوق العادة " منشكوف " الذى كان يشغل منصب وزير البحرية ، للتفاوض مع السلطان العثمانى فى قضية الأماكن المقدسة ، والحصول على امتيازات للرعايا الارثوذكس فى الدولة العثمانية ، إلا أن مسعى هذه السفارة الحقيقى كان السعى إلى إيجاد المبرر لحرب الدولة العثمانية .

أدركت بريطانيا أن تجاوب الباب العالى مع المطالب الروسية معناه زيادة النفوذ الروسى على حسابها ، ولذا استدعت بريطانيا أبرز دبلوماسيها وهو السير ستراتفورد لاحباط هذه المساعى الروسية كما أرسلت فرنسا بعض وحدات من أسطولها إلى المياه العثمانية ، وبدأت باريس ولندن تعملان على تحويل مهمة منشكوف من كونها خلافاً مذهبياً بين الكاثوليك والارثوذكس إلى كونها خلافاً سياسياً بين العثمانيين والروس ، ولهذا شجع السفير البريطانى فى الاستانة الدولة العثمانية على الوقوف فى وجه الأطماع الروسية ، مؤكداً للاستانة وقوف فرنسا وبريطانيا إلى جانب العثمانيين فى أى حرب قادمة مع الروس.

نجحت الدبلوماسية البريطانية فى اقناع السلطان العثمانى باستصدار فرمان للتجاوب مع المطالب الروسية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة فى القدس ، وبذلك ضيعت بريطانيا على روسيا حجة الخلاف المذهبى لتصعيد لهجة العداء مع الدولة العثمانية .

أغرى قبول السلطان العثمانى للمطالب الروسية منشكوف على أن يعلن بصلف واضح عن طبيعة مهمته فى الاستانة ، وتقدم بمطالب جديدة منها ضرورة إعلان استقلال الجبل الأسود .

ناقش البريطانيون مع السلطان العثمانى مطالب منشكوف الجديدة ،

وحثوه على رفضها ، فأرسل الباب العالى إلى منشكوف يعلمه بأن مطالبه ما هى إلا اعتداء صريح على حقوق السلطان العثمانى ، وتدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية ، وخروج على مهمته التى انتهت بصدور فرمان بخصوص الرهبان الكاثوليك فى القدس ، ورفض الباب العالى تغيير الأوضاع فى البلقان إلا بعد التباحث وموافقة الدول الكبرى.

أثار الرفض العثمانى غضب منشكوف ، وأرسل بدوره رسالة تحمل صفة الإنذار إلى حكومة الاستانة طلب فيها أن يعترف السلطان العثمانى لروسيا بحق حماية الارثوذكس حماية مطلقة وغير مقيدة (وكان عددهم فى الدولة العثمانية حوالى ١٠ ملايين نسمة) واعطى الدولة العثمانية مهلة للرد على مذكرته تنتهى فى ١٠ مايو ١٨٥٣م ، وأمام الرفض العثمانى رحل منشكوف من الدولة العثمانية مصطحباً معه جميع العاملين فى السفارة الروسية فى استانبول ، وبذلك قطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين استعداداً للحرب .

بدأت الحرب العثمانية الروسية فى ٣ يوليو ١٨٥٣ وكان مسرحها الأول فى أوربا بمنطقة البلقان ، حيث قام حوالى ٣٥ ألف جندى روسى باحتلال رومانيا التى كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية ، وأبلغت روسيا الدول الأوربية أنها لن تدخل فى حرب شاملة ضد الدولة العثمانية ، وأن ما فعلته إجراء وقائى لحين اعتراف السلطان العثمانى بحقوق الارثوذكس فى كنيسة القيامة فى القدس، وأنها سوف تنسحب فور هذا الاعتراف .

قامت الدولة العثمانية وروسيا بحشد قوات ضخمة على جبهات القتال ، وعلى جبهتى الدانوب والقوقاز ، واستطاع القائد العثمانى عمر باشا أن يلحق هزيمة كبيرة بالروس على نهر الدانوب ، وأن يدخل رومانيا ، وفى جبهة القوقاز ساند الزعيم الشيشانى الإمام شامل القوات العثمانية أثناء القتال ضد الروس .

أرادت الدولة العثمانية دفع بريطانيا وفرنسا إلى دخول الحرب إلى جوارها ، ودبرت إرسال مجموعة من قطع الأسطول البحرى العثمانى القديمة إلى ميناء سينوب على البحر الأسود ، وهى تدرك أن هذه السفن لابد أن يهاجمها الروس ، وبالفعل هاجم الروس هذه السفن وتم اغراقها جميعاً ، واستشهد حوالى ألفى جندى عثمانى ، واثارت هذه المعركة قلقاً فى الأوساط فى لندن وباريس ، وحذرت الصحافة فى العاصمتين من الخطر الروسى.

عرض الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث الوساطة لانهاء القتال بين العثمانيين وروسيا ، إلا أن القيصر الروسى رفض ذلك خاصة بعد انتصارات عمر باشا فى رومانيا ، فبادر نابليون الثالث بالاتفاق مع بريطانيا ضد القيصر ، وقبلت لندنْ العرض الفرنسى بحماسة شديدة ، وغادر سفيرا لندن وباريس مدينة سان بطرسبرج الروسية فى ٦ فبراير ١٨٥٤ ، وتم عقد معاهدة استانبول فى ١٢ مارس ١٨٥٤ بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ، ونصت على ألا تعقد أى دولة من هذه الدول صلحاً منفرداً مع روسيا ، وأن يتفاهم قادة الدول الثلاث فى الحرب ضد روسيا ، وأن تكون الوحدات الإنجليزية والفرنسية والسفن التابعة لهما فى استانبول خاضعة للقوانين العثمانية .

أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا فى ٢٧ مارس ١٨٥٤ ونشبت معارك ضخمة فى عدة جبهات أثناء حرب القرم .

فى هذه الأثناء توفى القيصر الروسى نيقولا الأول ، وخلفه فى الحكم ابنه الكسندر الثانى الذى شعر بعدم قدرة بلاده على مواصلة الحرب ، فقرر التفاوض للسلام ، خاصة بعد المذكرة التى تقدمت بها النمسا لروسيا وحذرتها فيها من أن دولاً أوربية أخرى قد تدخل الحرب ضدها .

استمرت الحرب أكثر من عامين ونصف ، حاربت فيها الدولة العثمانية

منفردة فى السنة الأولى منها ، وتميزت هذه الحرب بمتابعة الصحافة لها ، من خلال إرسال مراسلين عسكريين على جبهات القتال.

بعد توقف حرب القرم نشر السلطان العثمانى عبد المجيد فى ١٨ فبراير ١٨٥٦ م فرماناً عرف باسم المرسوم الهمايونى للاصلاحات ،اعترف الفرمان بالمساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية من مسلمين ومسيحيين ، ونص على تجنيد المسيحيين فى الجيش العثمانى ، على أن يدفع المسيحيون غير الراغبين فى الخدمة العسكرية بدلاً نقدياً ، وأن يمثل المسيحيون فى الولايات تبعاً لأعدادهم فى تلك المناطق.

وفى ٣٠ مارس ١٨٥٦ تم توقيع معاهدة باريس التى تضمنت حرية الملاحة فى نهر الدانوب ، وتشكيل لجنة دولية للاشراف على ذلك ، وإعلان حياد البحر الأسود وكانت هذه المادة كارثة بالنسبة لروسيا حيث أجبر هذا النص روسيا على سحب سفنها الحربية من هذا البحر ونقلها إلى بحر البلطيق ، وبالتالى أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية من الناحية الفعلية وليس القانونية .

واعترفت المعاهدة بالاستقلال الذاتى لكل من ولايتى الأفلاق وبغدان (رومانيا حالياً) ضمن الدولة العثمانية ، وأن يتم احترام استقلال الدولة العثمانية وعدم التدخل فى شئونها الداخلية مقابل تعهدها بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين فى البلقان ، وأعلنت الدولة العثمانية قبول مبدأ التحكيم فى حالة وقوع خلاف بينها وبين غيرها من الدول ، وكان هذا النص مهماً فى القانون الدولى الناشئ.

وقررت المعاهدة إعادة ميناء سيواستوبول لروسيا ، كما احتفظ العثمانيون بحق حماية الأراضى الصربية ، ووعدت الدول الكبرى بالعمل على حل أى خلاف ينشأ بين الصرب والعثمانيين .

وثبتت معاهدة باريس امتيازات فرنسا فى الأماكن المقدسة المسيحية

دون غيرها من الدول ، وأضفت عليها الطابع الحقوقى الدولى ، حيث أن الامتيازات فى السابق كانت نابعة من التعاقد الثنائى بين الدولة العثمانية ذات السيادة على هذه الأماكن وبين فرنسا منفردة .

وتكمن أهمية هذه المعاهدة فى أنها كشفت بجلاء أن المصالح هى التى تصنع الأحداث ومن ثم تصنع التاريخ ، فالتحالفات لا تصاغ وفق العقائد الدينية بقدر ما تصاغ وفق المصالح التى تحققها تلك العقائد ، ولذا كانت أطر التحالفات واسعة ومرنة وقابلة للتحرك مع تغير المصلحة ، وتلك قصة طويلة دامية كشفتها بجلاء معاهدة باريس.

لويس باستير

لم تظهر عليه ملامح النبوغ فى سنوات دراسته الأولى ، بـل أن أحـد أساتذته وصفه بأنه تلميذ عادى فى الكيمياء أو دون ذلك ... وكان ميله كبيـراً للرسم ... ولا تزال بعض لوحاته التى رسمها قبل بلوغه السادسة عشرة لوالده ولوالدته وبعض أصدقائه باقية تدل على دقة كبيرة وقوة ملاحظة .

إنه عالم الكيمياء والأحياء الفرنسى " باستير " الذى يعتبر مـن أعظـم الشخصيات فى تاريخ الطب ... فقد ساهم باجتهادات كثيرة فى العلوم الحديثـة ولكن فضله الأول يرجع إلى اكتشافه الجراثيم وعلاقتها بالمرض وأيضـاً إلـى اكتشافه التطعيم الواقى منها.

ولد لويس أولوى باستير فى ٢٧ ديسمبر عام ١٨٢٢ م ، فى بلدة "دول" بفرنسا وانتقلت العائلة بعد مولده بقليل إلى بلدة " مارنو " ثم إلى " أربوا " حيث لا يزال منزله القديم قائماً على حاله وقد تحول إلى متحف صغير ... وقد بـدأ باستير الطفل دراسته فى المدرسة الابتدائية ببلدة " أربوا " ثم تابعهـا منتسـباً بسبب ضيق الموارد بكلية " أربوا " وقد نصح مدير الكلية أباه أن يلحقه بكليـة المعلمين فى باريس وبالفعل ذهب باستير إلى باريس ١٨٣٨م ولكن نظراً لضيق ذات يده لم يتمكن من البقاء طويلاً هناك فعاد إلى بلدته ليكمل دراسته بها ولمس

فى نفسه شغفه بالعلوم فانتقل إلى بلدة " بيزانسون " ليدرس فى كليتها وفيها تخرج عام ١٨٤١م.

وفى عام ١٨٤٧م تخرج فى كلية المعلمين بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى العلوم وفى العام التالى مباشرة اكتشف ظاهرة عدم التماثل الجزيئى فى بعض أملاح أحد الأحماض مما رفع قدره كثيراً وجلب له كرسى الأستاذية فى كلية " ديجون " .

ثم بدأت مرحلة مهمة فى تاريخ حياته وتاريخ العلم عامة وذلك عند تعيينه أستاذاً وعميداً لكلية العلوم فى جامعة " ليل " فى المدة من ١٨٥٤م إلى ١٨٥٧م ، وفى هذه الفترة بدأ بحوثه على عملية التخمر وكيف تحدث واستخدم الميكروسكوب فى ذلك ، واهتدى إلى أن سبب التخمر يرجع إلى كائنات جرثومية صغيرة وأن هذه الكائنات هى المسئولة عن إفساد المشروبات المخمرة.

وبسرعة توصل إلى نتيجة أخرى هى أن هذه الكائنات من الممكن أن تؤدى إلى إيذاء الإنسان والحيوان ، ولم يكن باستير هو أول من لاحظ ذلك فقد سبقه كثيرون ولكنه أول من أثبت بالتجربة صحة نظريته وهذا وحده هو الذى أدى إلى اقناع كل العلماء فى عصره.

من أجل ذلك ابتكر " باستير " طريقة " البسترة " نسبة إليه للقضاء على الجراثيم والميكروبات التى تصيب اللبن وبعض الأطعمة الأخرى وذلك بتسخينها لدرجة حرارة معينة ثم تبريدها تبريداً مفاجئاً ويعتبر ذلك تعقيماً لها.

ثم لجأ إليه أستاذه القديم " دوماس " طالباً منه إنقاذ صناعة الحرير فى جنوب فرنسا من مرض يصيب دودة الحرير فيقضى عليها فانتقل باستير مع أعوانه إلى مناطق الإصابة وتعلم من الفلاحين دورة حياة الدودة والأعراض

التى تظهر على المريض منها وفحصها تحت الميكروسكوب فوجد ان هناك مستعمرات صغيرة من الميكروبات هى التى تسبب المرض ، وبعد ست سنوات قضاها باستير وثلاثة من أعوانه أمكن القضاء على مرض دودة الحرير وأمكن إنقاذ صناعته التى تقدر بملايين الفرنكات.

كما نجح باستير أيضاً فى القضاء على مرض كوليرا الدجاج وعلى مرض الجمرة الخبيثة التى تصيب الماشية ... لقد أمكن تحضير أمصال من ميكروب هذا المرض وغيره وحقنها فى الحيوانات المريضة فشفيت بعد فترة.

ثم ركز باستير أبحاثه بعد ذلك على مرض الكلب ، وبعد أبحاث متعددة وتجارب فاشلة وأخرى ناجحة توصل باستير إلى تحضير لقاح ضد هذا المرض اللعين . وفى السادس من يوليو عام ١٨٨٥م بدأ علاج أول أدمى من عضة كلب مسعور .

وقد جاءه يوماً تسعة عشر فلاحاً من مدينة "مولنسك " الروسية عضهم ذئب مسعور ومضت على إصابتهم ما يقرب ثلاثة أسابيع ، جاءوا إلى باريس يطلبون النجاة على يد باستير وكان خمسة منهم فى حالة سيئة جداً ، وقام باستير بحقنهم بأمصاله التى أعدها ... واقتصاداً للوقت كان يحقنهم صباحاً ومساء ... وانتظر العالم ليسمع نتائج هذه التجربة ، وكانت النتيجة نصراً هائلاً لنظريات باستير ... فقد نجا ستة عشر مصاباً ... ومات ثلاثة ، كان من الواضح أن "الميكروب" قد سبق إلى جهازهم العصبى فلا حيلة للأمصال فيها ... وعاد الفلاحون إلى بلادهم والعالم كله يهلل لباستير ... وبعث قيصر روسيا له وساماً إضافة إلى الأوسمة الكثيرة التى ازدحم بها صدره ... كما أرسل إليه هبة من المال لبناء معامل جديدة وبعهدها انهالت الهبات الأخرى التى رصدت لإنشاء "معهد باستير" فى باريس والذى افتتح فى نوفمبر عام ١٨٨٨ م.

وبمناسبة بلوغه عامه السبعين ، أقامت له فرنسا حفلاً كبيراً واجتمعت الوفود من جميع أنحاء العالم فى مدرج السوربون الكبير فى ديسمبر عام ١٨٩٢م ودخل باستير وهو يعرج قليلاً من أثر شلل قديم قد أصابه ، وهو مستند على ذراع رئيس الجمهورية ، والقوم كلهم وقوف يحيونه ... واندفع إليه "جوزيف ليستر " يعانقه ثم يقول فى وصفه أنه " رجل آمن إيماناً راسخاً أن العلم والسلم سوف ينتصران على الجهل والحرب وأن الناس سوف تجتمع على البناء لا التخريب ".

وبعد ثلاث سنوات من هذا التكريم فى ٢٨ سبتمبر عام ١٨٩٥م توفى باستير ودفن فى مقبرة أعدت له فى معهده.

نـهر النيل

النيل أطول أنهار الكرة الأرضية ... يقع فى الجزء الشمال الشرقى من قارة أفريقيا ، ويبدأ مساره من المنبع عند بحيرة فيكتوريا – الواقعة بوسط شرق القارة – ثم يتجه شمالاً حتى المصب فى البحر المتوسط ، بإجمالى طول ٦,٦٥٠ كم ، يغطى حوض النيل مساحة ٣,٤ مليون كم٢ ، ويمر مساره بعشر دول أفريقية يطلق عليها دول حوض النيل .

يتكون نهر النيل من فرعين رئيسيين يقوما بتغذيته وهما : " النيل الأبيض " و " النيل الازرق " .

بالنسبة للنيل الأبيض تعتبر بحيرة فيكتوريا هى المصدر الأساسى لمياه نهر النيل ، تقع هذه البحيرة على حدود كل من أوغندا وتنزانيا وكينيا ، وهذه البحيرة بدورها تعتبر ثالث البحيرات العظمى بالتوازى ، يعتبر نهر روفيرونزا فى بورندى هو الحد الاقصى لنهر النيل ، وهو يشكل الفرع ، بعد مغادرة بحيرة فيكتوريا يعرف النيل فى هذا الجزء باسم نيل فكتوريا ويستمر فى مساره لمسافة ٥٠٠ كم (٣٠٠ ميل) مروراً ببحيرة كيوجا حتى يصل إلى بحيرة البرت .

بعد مغادرة بحيرة ألبرت يعرف النيل باسم نيل ألبرت ثم يصل النيل إلى السودان ليعرف باسم بحر الجبل ، وعند اتصاله ببحر الغزال يمتد النيل لمسافة

٧٢٠ كم يعرف فيها باسم النيل الأبيض ، ويستمر النيل فى مساره حاملاً هـذا الاسم حتى يدخل العاصمة السودانية الخرطوم.

ويشكل النيل الأزرق نسبة (٨٠ -٨٥ %) من المياه المغذيـة لنهـر النيل، ولكن هذه المياه تصل إليه فى الصيف فقط بعد الأمطار الموسمية علـى هضبة اثيوبيا ، بينما لا يشكل فى باقى أيام العام نسبة كبيرة حيث تكون الميـاه فيه ضعيفة أو جافة تقريباً ... ينبع هذا النهر من بحيرة تانا الواقعة فى مرتفعات اثيوبيا بشرق القارة بينما يطلق عليه اسم "النيل الأزرق" فى السـودان ، وفـى اثيوبيا يطلق عليه اسم " آبباى " ، ويستمر هذا النيل حاملاً اسمه السودانى فـى مسار طوله ١,٤٠٠ كم حتى يلتقى بالفرع الآخر – النيل الأبيض – ليشكلا معاً ما يعرف باسم " النيل " من هذه النقطة وحتى المصب فى البحر المتوسط .

بعد اتحاد النيلين الأبيض والأزرق ليشكلا معاً النيل ، لا يتبقـى لنهـر النيل سوى رافد واحد لتغذيته بالمياه قبل دخوله مصر وهو نهر عطبرة والـذى يبلغ طول مساره ٨٠٠ كم تقريباً ، ينبع هذا النهر من المرتفعات الاثيوبية أيضاً شمالى بحيرة تانا ويتصل بنهر النيل على مسافة ٣٠٠ كم بعد مدينة الخرطوم .

بعد عودته لمساره الاصلى يعبر النيل الحـدود المصـرية السـودانية ويستمر فى مساره داخل مصر بطول ٢٧٠ كم حتى يصل إلى بحيـرة ناصـر وهى بحيرة صناعية تقع خلف السد العالى .

وبعد وصوله إلى بحيرة ناصر يغادر النيل البحيرة ويتجه شمالاً حتـى يصل إلى البحر المتوسط .

ويصل نهر النيل إلى أقصى الشمال المصرى ليتفرع إلى فرعين فـرع دمياط شرقاً وفرع رشيد غرباً ، ويحصران فيما بينهما دلتا النيل وهـى تعتبـر على قمة قائمة الدلتا فى العالم ، ويصب النيل فى النهاية عبر هذين الفرعين فى

البحر المتوسط منهياً مساره الطويل من أواسط شرق أفريقيا وحتى شمالها .

ظل نهر النيل يمثل لغزاً غامضاً للكثيرين حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ففى عام ١٨٥٨ استطاع المستكشف الإنجليزى جون هانتج سبيك الوصول إلى بحيرة فيكتوريا ، أما نظيرة صاموئيل وايت بيكر فقد استطاع الوصول إلى بحيرة ألبرت فى علم ١٨٦٤.

بعدهما قام المستكشف الألمانى جورج أوغست شوينفروث باستكشاف بحر الغزال فى الفترة بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٧١ بينما قام نظيره الانجلو أمريكى هنرى مورتون ستانلى باستكشاف بحيرة فيكتوريا فى عام ١٨٧٥ وتبعها بالوصول إلى بحيرة إدوارد عام ١٨٨٩ وهكذا حل لغز النهر الذى ظل غامضاً لآلاف السنين .

نتيجة للامكانيات الهائلة التى يوفرها نهر النيل فقد كان مطمعاً للقوى الاستعمارية فى القرن التاسع عشر فقد تحكمت الدول الأوربية فى دول حوض النيل فى تلك الفترة ، وبينما كانت بريطانيا تحكم قبضتها على مصر والسودان وأوغندا وكينيا ، أحكمت ألمانيا قبضتها على تنزانيا ورواندا وبورندى ، وفى نفس الوقت قامت بلجيكا بالسيطرة على الكونغو الديمقراطية والتى كانت تعرف فى هذا الوقت باسم زائير .

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) اوزارها، قسمت الإمبراطورية الألمانية بين كل من بريطانيا وبلجيكا فحصلت إنجلترا على تنزانيا وحصلت بلجيكا على رواندا وبروندى وبقيت اثيوبيا دولة مستقلة .